مكتبة
الحكيم الترمذي

آداب المريدين
و
بيان الكسب

للإمام

الحكيم الترمذي

تحقيق وتعليق وتقديم

الدكتور
عبد الفتاح عبد الله بركة
أستاذ مساعد العقيدة والفلسفة
بجامعة الأزهر


مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر — شارع الجنداوي رقم ٤
ت ٩٠٧٣٧٩
س ت ١١٩٩٧٠


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، ولى الحمد وأهله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ،

وبعـــد :

فبين يدينا الآن رسالة قصيرة من رسائل الحكيم الترمذى -- وهو أبو عبد الله محمد بن على بن الحسن الحكيم الترمذى - الذى برز فى القرن الثالث الهجرى كعلم شامخ من أعلام التصوف المتميزين .

وقد كتبت عنه كتب التراجم بتوقير شديد، ولكن باختصار شديد فذكره الكلاباذى بين من صنف فى علوم المعاملات .

كما ذكره السلمى بأنه من كبار مشايخ خراسان ، وأن له التصانيف المشهورة ، وأنه كتب الحديث الكثير ورواه .

وذكره أبو نعيم الأصبهانى بأنه مستقيم الطريقة ، تابع الآثار ، يرد على المرجئة وغيرها من المخالفين .

وذكره القشيرى بأنه من كبار الشيوخ ، وله تصانيف فى علوم القوم .

إلى غير ذلك مما يمكن الرجوع إليه فى كتب التراجم المختلفة .

وكتبه ورسائله فى التصوف تعتبر من أمهات كتب المتصوفة ، على الرغم من تقدم عصرها .

كذلك نظر إليها الصوفية ، وكذلك نظر إليها الباحثون فى التصوف

فهذا ـ مثلا أبو الفرج بن الجوزى يصف أحد كتبه بقوله :
« وقد صنف لهم ـ أى للصوفية ـ أبو عبد الله محمد بن على الترمذى كتابا سماه : « رياضة النفوس ... » .

وهذا أيضا ابن عربى ، نجده قد أفاد من هذه المصنفات ، حتى عقد فصلا طويلا فى كتابه « الفتوحات المكية » للاجابة على أسئلة أوردها الحكيم الترمذى فى كتابه « ختم الأولياء » ، بل أفرد لذلك كتابا مستقلا ، سماه « الجواب المستقيم عما سأل عنه الترمذى الحكيم » ، وذلك زيادة فى العناية به ، واعترافا بالقيمة المستكنة فى طوايا كلامه وتصانيفه .

لم يكن الحكيم الترمذى ـ فى عصرنا هذا ـ مجهول المكانة عند أهل التصوف ، لكنه كان غامض المكان عند الباحثين ، حتى اتجهت أنظارهم إليه قليلا قليلا . وكلما ظهر أثر من آثاره زاد من اجتذاب الأنظار إليه ، بحيث أصبح من الواضح لدى جميع الباحثين أن أهميته لا تقل عن أهمية أعلام التصوف المعدودين .

ولقد أشار إلى ذلك أربرى فى كتابه « التصوف Sufism » حيث قال : « إن القرن الذى أبرز المحاسبى والجنيد والحلاج قدم للتصوف الإسلامى ـ ممن أسهموا فى بناء صرحه ـ من ليسوا أقل أهمية إلا بوجه

من المقارنة ، وليس الحكيم أقل أهمية من هؤلاء» ، كما ظهر ذلك في بعض البحوث الحديثة المتخصصة أتم ظهور[١] .

وقد اختلفت كتب التراجم في تحقيق تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته ، ويميل الباحثون إلى ترجيح أن يكون الحكيم قد ولد نحو عام خمسة ومائتين ، وأن يكون قد عمر مائة وخمسة عشر عاما ، وأن يكون قد توفى نحو عام عشرين وثلاثمائة للهجرة .

ولقد نشأ الترمذى فى مدينة ترمذ ، وكانت مدينة من أمهات المدن ، بل كانت أجل مدينة على نهر جيحون فى ضفته الشرقية ، بإقليم ما وراء النهر ، وكانت ميدانا فسيحا ومجالا خصبا لعدد كبير من الفقهاء والمحدثين، وأرباب المذاهب والآراء ، وهى التى أنجبت أمثال أبى عيسى محمد بن عيسى ابن سورة الترمذى ، صاحب كتاب الشمائل ، وصاحب الجامع أحد الكتب الصحاح الستة .

ثم إنه نشأ فى بيت علم ، فأبوه على بن الحسن بن هارون ، الترمذى المحدث الذى حدث ببغداد .

فلا غرو أن اتجه الحكيم إلى العلم منذ صغره ، فأحاط بكثير من العلوم .

---

(١) منها كتاب الدكتور عبد المحسن الحسينى رحمه الله عن « المعرفة عند الحكيم الترمذى » ومنها كتاب المحقق عن « الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية » .

لقد بدأ منذ بلغ من السن ثمانيا يدرس العلم ، ويدأب عليه فى المنشط والمكره ، ووفق فى حداثة سنه لأن يجمع بين علم الآثار وعلم الرأى ، وظل منصرفا إلى تحصيل هذين العلمين حتى قارب سنه السابعة والعشرين ، فحصل كثيرا من الحديث وأهمه .

ثم توجه إلى مكة لأداء الفريضة ، وهناك بدأ يتجه اتجاها مختلفا ، لقد بدأ يتخفف من الاتجاه العقلى الجاف بعد أن حصل منه ما حصل ، ووعى منه ما وعى ، ويستزيد من الاتجاه الروحى السامى ، حيث أخذ نفسه بالرياضة ودقائقها ، دون هوادة أو تهاون ، وقد طلب من يعينه على ذلك من الإخوان ، فعز عليه ، لكنه لم ييأس من نفسه ، بل لجأ إلى الخلوة والعزلة واجتناب الخلق ، واستمر على ما هو عليه من رياضة ومحاسبة ، وهو فى هذه الأثناء يرى من الرؤى ما يشجعه ويثبته على طريقته ، حتى وفق لبعض الإخوان ، فكانوا يجتمعون بالليالى يتناظرون ويتذاكرون ، ويدعون ويتضرعون .

ويبدو أنه كان خلال هذه المناظرات والمذاكرات يستجمع سابق تجربته فى ميدان تحصيل العلم ، ومعرفته بما كان يدور فى مدينته ـ وهى جزء من العالم الإسلامى ـ من آراء ومذاهب تختصم وتفترق ، وما شاهده خلال تجاربه الصوفية من دعاوى ومدعين ، وهداة صادقين ، فكان لا يتحرج من الحديث عن هذه التجارب ، متطرقا أو منساقا منها إلى نقد قاس لعلماء زمنه فى سائر النواحى ، سواء فى علم الرأى أو علم الآثار ، أو حتى فى السلوك الصوفى لبعض المتصوفين ، بل فى السلوك الاجتماعى ،

فى كثير من نواحى المجتمع ، مما أحفظ عليه الكثيرين ، فتعرض لحملة قاسية ، وكثرت القالة فى شأنه ، وجعلوا جميعا يرمونه بالهوى والبدعة ، حتى أصبح لايجترئ أن يرفع رأسه خوفا من العامة .

ولقد ساعده ذلك على إخلاص خلوته ، وإحكام عزلته ، والصدق فى التجائه إلى ربه .

ولم يستمر الأمر على ذلك ، بل هاجت بالبلاد فتنة اضطر فيها جميع من كانوا يؤذونه ويتقولون عليه إلى الهرب ، ولم يعد هناك من يذكر الناس صباح مساء بهذه الأقاويل، لذلك لم يلبث الناس أن اجتمعوا عليه ومعهم مشيخة البلد ، يكلمونه فى القعود لهم ، وألحوا عليه فى ذلك حتى أجاب .

وبرز للناس ، فبرز فضله ، وانتشر ذكره ، واجتمع الخلق عليه ، وتزايدوا حتى فاضوا عن داره ، وما زالوا به حتى قعد لهم فى المسجد ، وأقبلوا عليه بالتعظيم والتبجيل .

ويبدو أنه فى أثناء هذه الفترة ظهرت أسس الفرقة التى ينسبها إليه الهجويرى فى كتابه « كشف المحجوب » باسم « الحكيمية » و « الترمذية» ويقول عنها : إن مأخذ قولها فى الولاية هو الترمذى ، ومصداق ذلك مايقوله الترمذى نفسه عن هذه الفترة ، بأنه ظهرت التلامذة ، وأقبلت الرياسة والفتن ، بلوى من الله لعبده .

وقد دلت آثاره من الكتب والرسائل على شيوع ذكره ، وانتشار أمره ، سواء بين الخاصة أو بين العامة ، بل دلت على اعترافهم بإمامته

فى بابه ، فقد بقيت فى مخطوطاته عدة رسائل ، كان يجيب فيها على من توجه إليهم إجابة المرشد والمعلم، أو على أقل تقدير، إجابة الموضح والمبين.

من ذلك رسائله إلى محمد بن الفضل البلخى ، وأبى عثمان سعيد النيسابورى ، إلى آخرين لم يرد ذكر أسمائهم فيها .

ومن ذلك رسالة بعنوان « جواب كتاب من الرى » حيث يخاطب بعض المريدين . ويقول فى خلال حديثه : « وقد شرحت هذا كله فى كتاب أنفذته إليكم ، عنوانه : « سيرة الأولياء » فاطلبه تجد هذا كله فيه إن شاء الله تعالى » .

فهذه الرسالة بهذا العنوان ، وما أشار إليه خلالها من إنفاذه كتاب سيرة الأولياء من كتبه إليهم ، يدل دلالة بالغة على مدى الصلة التى كانت تربطه بكثير من المريدين ، سواء فى بلدته أو فى بلاد أخرى .

ولم نذهب بعيدا ، والرسالة التى نقدمها الآن نموذج آخر من هذه النماذج التى تدل على تمكنه ، وعلى معرفة الناس فى عصره لقدره وإمامته .

وتعرف هذه الرسالة بعنوانين :

الأول : المسائل التى سأله أهل سرخس عنها .

الثانى : بيان آداب المريدين .

وقد اختلط الأمر على بعض الباحثين فظنوهما عنوانين لرسالتين مختلفتين وليس الأمر كذلك .

فأما العنوان الأول فيوجد فى المخطوطتين اللتين اعتمدت عليهما فى إخراج هذه الرسالة ، فهو - إذن - عنوان ثابت معروف .

وأما العنوان الثانى فيوجد فى مخطوط واحد منهما، ويبدو أنه عنوان مقتبس من مقدمة الرسالة ومن فحواها . فهو يقول فى مقدمتها : « أما بعد، فقد فهمت مسائلك وما سألت من شأن المريد ، وما الذى ينفعه ويضره فى سيره إلى الله تعالى ، وكيف ينبغى أن يكون مبتدأ أمره » ثم يمضى فى معالجة هذه المسائل ، التى تدور - كما ارتأى واضع العنوان - حول المريدين وآدابهم . وقد ذكرها الهجويرى بهذا العنوان فى كتابه « كشف المحجوب » فازداد هذا العنوان تأصلا ورسوخا .

وهاتان المخطوطتان هما :

١ - المخطوطة المحفوظة فى مكتبة ليبزج تحت رقم ٢١٢ ، ومجموع أوراقها ٢٢٧ ورقة ، وتحتوى على رسائل متعددة ، ومجموعات مسائل ، ومسائل مفردة ، كلها للحكيم الترمذى ، وتقع هذه الرسالة فيها ابتداء من الورقة ١٦٩ ا ، وتنتهى بالورقة ١٨٨ ، وتتميز بإغفال ناسخها - غالبا - ذكر ألفاظ التنزيه بعد ذكر اسم الجلالة .

وقد رمزت لها فى الحواشى بحرف الزاى .

٢ - المخطوطة المحفوظة بدار الكتب الوطنية الظاهرية ، تحت رقم ١٠٤ ، وتحتوى على خمس رسائل ، كلها للحكيم الترمذى ، وترتيب رسالتنا هذه هو الرابعة فيما بينها . ونسختها واضحة الخط ، جميلة التنسيق، ويبدو

أن ناسخها كان متأنيا ومتأنقا فى كتابتها ، بحيث قلت أخطاؤه وأغلاطه، ولم يغفل ذكر ألفاظ التنزيه بعد ذكر ألفاظ الجلالة .

وقد رمزت لها فى الحواشى بحرف الظاء (١) .

وتكاد النسختان تتطابقان فيما عدا بعض أخطاء النسخ والنقل ، وقد قابلت بينها ، واعتمدت عليهما معا فى التحقيق ، بحيث أجعل كلا منهما مصححا للأخرى ، فيما يتصادف وجوده فيها من أخطاء منبها فى الحواشى على هذه الفروق ، اللهم إلا ما أرى أنه غاية فى الوضوح ، بحيث أعتبر التنبيه عليه مبالغة وتطرفا لاداعى لهما ، وقد يعتبره بعض القراء استهانة بقدره وبقدر فهمه .

كما أثبت ألفاظ التنزيه كما وردت ، وأنى وردت، رعاية للاسم الجليل وتقديرا أن الحكيم الترمذى لم يكن ليهمل ذلك أو يغفله هذا الإغفال ، ونبهت على ذلك فى الحواشى الأولى للرسالة ، ثم تركت التنبيه عليه بعد ذلك ، مكتفيا به ، وبالتنبيه عليه فى هذه المقدمة .

وتعالج هذه الرسالة - كما هو واضح من عنوانها - مسائل سأله أهل سرخس (٢) عنها ، ويمكن أن نلمح خيطا واحدا يجمع بينها ، هو الذى

(١) وهناك نسخة أخرى ضمن المخطوط المحفوظ بمكتبة إسماعيل صائب تحت رقم ١٥٧١ ، ولم أجد داعيا لانتظار حصولى على نسخة مصورة منها نظرا للاتفاق الكامل الواضح فى النسختين الأخريين ، مما يدل على صحة النص الوارد فيها ، ما عدا أخطاء النسخ التى راعيناها فى التحقيق .

(٢) وقد كانت مدينة كبيرة قديمة ، تقع فى نواحى خراسان ، فى وسط الطريق بين نيسابور ومرو ، وتنطق بالفتح ثم السكون ، وفتح الخاء المعجمة ،

أمكن بمقضاه أن يطلق على هذه الرسالة عنوان « بيان آداب المريدين»
وترتيب هذه المسائل كما يلى :

١ ـ شأن المريد ، وما ينفعه ويضره فى سيره إلى الله .

٢ ـ صلاح القلب ودواؤه ، وفساده وداؤه .

٣ ـ معنى الولاية .

٤ ـ عقل المؤمن .

٥ ـ القلب وعمل السر .

٦ ـ الهوى المردى ، والحاجة إلى جهاد النفس .

٧ ـ الوسوسة ومتى تنقطع .

٨ ـ كثرة الوسوسة ، وكيفية الخلاص منها .

٩ ـ ضرر الوسوسة فى الصلاة .

١٠ ـ سبب الحساب .

١١ ـ كثرة العمل مع فساد الباطن ، وقلة العمل مع صحة الباطن .

١٢ ـ الدنيا ، وكيف يكون الزهد فيها .

١٣ ـ ماروى من أنه صلى الله عليه وسلم كانت له قرى وعبيد وإماء ومراكب وشياه .

١٤ ـ العلاقة بين التقوى والعلم .

= وآخره سين مهملة ، ويقال سرخس بفتح الثلاثة الأول .
انظر مراصد الاطلاع الجزء الثانى .

١٥ - ليس الرياء فى الفرض .

١٦ - الفرق بين التقوى والورع .

١٧ - قوله تعالى « أو صديقكم » .

١٨ - قوله تعالى « ولا يبدين زينتهن » .

١٩ - قوله تعالى « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » .

٢٠ - الخروج من النار بمثقال ذرة من خير .

٢١ - الاعتصام بحبل الله .

وهى مسائل - كما ترى - يدور معظمها حول بدايات المريد ، والأساس الذى تنبنى عليه الإرادة ، وكيف يقوم المريد بمراقبة نفسه وجهادها ، ومحاولة التخلص من وساوسها ، ومن وساوس العدو .

كما نرى مسائل أخرى ، أشبه ما تكون باعتراضات على بعض أوجه النظر لدى الحكيم الترمذى ، صيغت فى صورة أسئلة بريئة ، يقصد بها الاستفادة ، كما يبدو ذلك فى المسألة الخاصة بسبب الحساب ، والخاصة بتفضيل العمل القليل مع صحة الباطن على العمل الكثير مع فساد الباطن ، وكذلك عن رأيه فى الزهد فى الدنيا ، مع ماروى من أنه صلى الله عليه وسلم كانت له قرى وعبيد وإماء ومراكب وشياه .

ومع ذلك الاحتمال ، فإن وضعها وسياقها يجعل منها عناصر هامة فى

توجيه المريد ، بحيث لو لم يقصد بها الاعتراض أصلا ، لكان من المظنون أن يعالجها الحكيم نفس المعالجة تحت أى عنوان ، لوجود المناسبة الداعية إليها ، والتى تجعل وجودها لازما لاكتمال الصورة الخاصة بسعى المريد خلال سيره إلى الله تعالى .

ولننظر بشيء من التمعن فى عناصر هذه الرسالة ، فسنجد أنه يشير إلى الأسس الضرورية التى تقوم عليها فكرة الإرادة الصوفية الخاصة بالسعى إلى الله .

إن كثيرا من الناس يظنون أن جميع المسلمين سواء فى العلاقة بالله سبحانه وتعالى ، وأن دعاوى الصوفية عن العلاقة الخاصة لامستند لها ، وأنه لذلك ينبغى أن تنبذ كل أفكار التصوف ، وتهجر كل تعليماته ، لأن الكل سواء أمام الله سبحانه وتعالى ، وادعاء الخصوصية يتنافى مع عموم الدين وعموم الرسالة ! !

والحكيم الترمذى يضع هذه القضية بادىء ذى بدء ، فيرى أن الموحدين كلهم أولياء الله وأحبابه ، وأنه وليهم ، ومحبهم ، ومحبوبهم ، والاهم بالمنة ، فوالوه بالتوحيد ، فهم فى ذلك سواء .

لكن هنا لك فرق بين من يفى بحق التوحيد ، ومن يقصر فى الوفاء بهذا الحق ، والعبد مطالب بالوفاء ، ونفسه تنازعه بما فيها من الهوى ، وتدعوه إلى التقصير وترك الوفاء .

ومن هنا تختلف ولاية عن ولاية .

هنالك ولاية يخرج بها العبد من العداوة . وتلك هى ولاية التوحيد ولاشك أن هذه الولاية عامة ، يشترك فيها المسلمون جميعاً ، ولا يختلف بشأنها الصوفيون .

وهنالك ولاية أخرى قد لا تكون على بال جميع الموحدين ، وإنما تتوجه إليها إرادة الذين ارتقت إرادتهم إلى مثل هذه المراتب .

ذلك أن الموحدين جميعاً مطالبون بالوفاء بحق التوحيد من أداء الفرائض ، والتزام الحدود ، وكف الجوارح عن محارم الله وبهذا يخرج الموحدون من حدود الظلم .

ثم يفترقون فى إرادتهم من وراء ذلك .

فمنهم من سار فى طريقه ، ناظرا إلى النجاة من العقاب ، والفوز بالثواب ، وهذا لم يسخ بنفسه إلا بعد أن ارتشت حتى رضيت : فضحى بشهواته الدنيوية الزائلة ، فى مقابل شهوات رفيعة باقية ، وهو - مع ذلك - عرضة للوقوع فى تخليط الأعمال ، وعليه أن يبذل جهده فى مكافحة شهواته ونزوات نفسه ، فهو متروك لجهده وما يبذل من سعى فيه .

ومنهم من نظر إلى الثواب والعقاب ، فلم يلهه النظر إليهما عن النظر إلى رب الثواب والعقاب ، فعرف حق الله عليه ، وسخا بنفسه اعترافا بهذا الحق وأداء له .

وهنا تبدأ الولاية الأخرى ، الولاية الخاصة ، التى لا يشترك الجميع فى الوصول إليها ، بل يتمتع بها من عمل عليها ، ووجه إرادته إليها ، وفاز بتوفيق الله فيها .

فالولاية الأولى يخرج بها الموحد من العداوة ، ومن الظلم .

ويخرج بالولاية الثانية من الخيانة ، فيكون أمينا من أمناء الله عز وجل ، ذلك أنه قد جاهد نفسه فى ذات الله بكل أنواع المجاهدة ، مع بذل أقصى غاية فى الصدق ، أداء لحق الله ، حتى نظر الله إلى صدقه ، فقبله وتولاه .

وينبغى أن نلاحظ - هنا - أن الحكيم يعالج سير المريد فى طريقه إلى الله ، وما ينبغى أن يكون عليه فى سيره ، ولذلك لا يتعرض إلى ولاية أخرى أعلى وأرقى ، هى ولاية الذين اجتباهم الله بمحض منته ومشيئته ، فلها مجال آخر ، وقد أوسعها الحكيم فيه حديثا واستقصاء .

أما هنا ، فيلاحظ المريد فى سعيه ، ويدله على ما يصادفه من العقبات والصعاب ، وما ينبغى عليه لكى يتخطاها آمنا سالما ، مبقيا على سيره ، متمسكا بطريقه ، حتى يصل إلى الغاية المنشودة .

فهذا المريد الذى سار الى الله تعالى ليعبده بأداء فرائضه ، واجتناب محارمه ، يجد نفسه مليئة بشهوات مالديها من الجوارح ، وهو محتاج إلى حراسة جوارحه ، فإن غفل عن الحراسة ساعة لم يأمن أن تستبد به نفسه فتوقعه فى المآثم .

لذلك يظل يقظا متحفزا ، دائم الانتباه لمنع جوارحه من طاعة النفس، ومجاوزة الحد ، حتى إذا مل وأراد أن يستريح من هذه الحراسة تفكر فى الداعى له إلى ذلك ، فوجد أن الشهوة الواحدة منها ماهو مباح ومنها ما هو محظور ، وأنه يقوم بالحراسة لكى يتمتع بالمباح دون أن يتخطى إلى المحظور ، فإذا أراد أن يستريح من هذه الحراسة ، فعليه أن يمتنع عن هذه الشهوات جملة : مباحها ومحظورها ، ويظهر بذلك برهان من براهين صدقه فى عزمه على الوفاء بحق الله ، فتشرق أنوار العطاء الإلهى فى صدره ، ويجد روح الطريق ، حتى يأنس به ، ويخف عليه .

وكلما تواردت عليه أنوار العطاء ، كلما ازداد قوة على رفض الشهوات وعلى مجاهدة نفسه ، وكلما ازداد فى هجر هذه الشهوات ، كلما زيدله فى أنوار العطاء ، حتى يصبح ماهرا بالطريق .

ويشير لنا الحكيم الترمذى فى إيجاز إلى الأصل الذى تنبنى عليه مجاهدة النفس ، واحتياج المريد إلى ذلك .

فهو يرى أن النفس قرينة الروح وشريكته فى الجسد ، وأن الروح ريح سماوية ، وأن النفس ريح أرضية ، وقد عبر عن ذلك مرة أخرى بأن القلب والنفس شريكان فى الجسد ، وأن أصل الشهوات نعم وأفراح وزينة مخلوقة من النار ، تحف بباب النار ، وأنه قد وضع منها شيء فى جوف الآدمى ، فإذا خرج الهوى - وهو ريح هفافة - من النار ، مر بتلك الشهوات ، فاحتمل منها ، وأوردها إلى نفوس الآدميين .

وقد جعل الله لإبليس سبيلا إلى مجرى النفس فى العروق الى حد القلب ، ولم يجعل له سبيلا مباشرا داخل القلب ، ولكن تدخل آثاره فيه خلال العروق .

فعندما يهب الهوى محتملا من الشهوات مايحتمل إلى نفوس الآدميين يقوم عدوهم إبليس بتزيينها لهم ، حتى يهيج ما فى نفوسهم منها .

فإذا وصلت نفخة العدو بذلك الهوى ، هاجت النفس بما فيها من الشهوات ، ولم تلبث أن تستولى على القلب ، حتى يقع فيما أرادت ، إلا أن يستغيث بالله ، ويلجأ إليه فى ذلك الوقت ، فيتداركه ربه ، ويقيه من الزلل .

وهذا هو شأن النفس كلما أزها الهوى ، ووسوس إليها الشيطان ، وهاجت بها الشهوات ، ولها فى ذلك قوة وجنود من مختلف اللذات ، وألوان المنى ، يقودها الهوى ، وينفخ فيها الشيطان .

ولو تركت النفس وشأنها هكذا ، لأوردت صاحبها المهالك ، ومن شأن المريد أن يتقى ذلك ، فهل يتركها كما هى ، كلما خطر لها خاطر أحاطت به من كل جانب ! !

لهذا احتاج المريد - إذا كان صادقا - أن يلاحظ نفسه فى كل وقت وكل عمل ؛ فهو فى كل حال مشغول بنفسه ، يمنعها من تحقيق مشتهياتها ، وتحصيل مناها ؛ حرصا على حدود الله ، ورعاية لحق الله .

وقد عرفنا أنه إذا أراد أن يستريح قليلا من عناء الحراسة ، فعليه

أن يمنعها من جميع الشهوات مباحها ومحظورها ، فإن منعها من المباح يجعلها لا تطمع فى المحظور .

ويؤكد الحكيم هذه المعانى مبينا أن فساد القلب ينشأ من الإقبال على أفراح الدنيا ، والسرور بأحوال النفس، وأن داءه يتمكن فيه بإعراضه عن ذكر الله ، وإقباله على ما يلهيه عن ذكر الله جل وعلا ، وأن هذه الأمور هى سر حياة النفس وقوتها ، والسبب فى تسلطها وتحكمها ، فهى بالنسبة للنفس كالماء بالنسبة للحيتان ، لا حياة لها بدونها .

فمن أراد التخلص منها ومن تسلطها ، حتى يصون قلبه ويحفظه ، فما عليه إلا أن يمنعها أفراح الدنيا وشهواتها ، حتى تنقبض وتنكمش ، فيتخلص القلب مما تورده عليه من الفساد ، ويكون فى ذلك صلاح القلب وحفظه وصيانته ، ويكون دواؤه فى الإقبال على ذكر الله ، والمداومة عليـــه .

فإذا جاهد نفسه هذا الجهاد ، وأقبل على الله وذكره هذا الإقبال ، حيي قلبه ، وأصبح محلا لعطاء الله ، وفتح لقلبه الباب لكى يمر - بطهارته - سائراً إلى الله ، حتى يحييه الله بنوره فى القربة ، ويصبح من المقربين .

وهكذا ، يرى الحكيم الترمذى أن مجاهدة النفس أصل الأصول بالنسبة للمريد الصادق ، وأن صلاح قلبه فى الهموم والأحزان ، ودواءه فى مداومة ذكر الله ، لأن كل ذلك ينغص على النفس عيشها ،

ويحرمها من قوتها ، التى تتمثل فى طلب العز والعلو والرفعة ، وقضاء النهمات ، وتحصيل المنى ، وغير ذلك من الرغبات والشهوات .

ولقد يجد بعض الناس صعوبة فى إدراك هـذه المعانى وتأصيلها على أصل صحيح ، إذ كيف يجـد فيما أحل الله سببا لفساد القلب ! ! وفى الامتناع منه سببا لصلاح القلب ؟ ! !

ويبين الحكيم ذلك بيانا شافيا ، ذلك أن الدنيا والآخرة قد خلقتا للآدميين ، وقد جعلت الأولى تمهيدا للأخرى ، وتبويئا لها ، وأن الآدمى عبد لله ، عليه أن يقدم العبودة خالصة لله .

فمن ذهب برقبته فقد أبق .

ومن فرط فى واجب العبودة متعديا حدود الله ، كان ما تناوله من الدنيا ـ بمعصية مولاه ـ مذموما .

وإذا تناول من الدنيا لرغبة نفسه وشهوتها ولذتها ، دون أن يلاحظ فيما يتناول حق الله ، كان ذلك تضييعا لعبودته لمولاه ، فوق أنه قد يجر إلى مالا تحمد عقباه .

لهذا ورد ذم الدنيا ، مع أنها وسيلة الآخرة ، وإنما ذم من الدنيا كل ما خلا من طاعة الله ، ولهذا زهد فيها الأخيار ، ولم يتناولوا منها إلا مالا بد منه ، حرصا على عبودتهم .

كما أنهم لم يتناولوا منها إلا مالا بد منه لسبب آخر ، هو تخفيف الحساب فقد خلق العبد ـ كما قلنا ـ للعبودة ، وهو مسئول عن حركاته

وسعيه وتناوله فى الدنيا ، وعن كل ما يفعله ، من أجل من تحرك ؟ وسعى ؟ وتناول ؟ ؟ ؟

يقول الحكيم :

« فما حرم عليه منها لم يكن له فيه حجة، والعقوبة واجبة إلا أن يعفو .

« وما أحل له منها : فإن كانت له نية فى كل أمر ، فقد أتى بالعبودة ، ووجب له الثواب .

« فإن غفل عن النية ، وكان ذلك منه بشهوة نفسه وهواه لم يأت بالعبودة ، ولم يجب له ثواب ، وتعطل من أيام عمره ، التى هى حجة عليه ، بقدر ما غفل ، وكان ذلك حسرة عليه يوم القيامة ، حيث يرى أفعالا قد أبيح له فعلها ، ولم يرد بها الله، ولا ابتغاء وجهه، ولا طلب مرضاته » .

وإذا توقعنا ذلك من عامة المسلمين ، من غير المريدين ، فإن ذلك لا يصح أن يكون شأن المريدين ، الذين يقصرون حياتهم على طلب مرضاة الله ، وأداء حق الله .

فماذا يفعل المريد ؟ إذا كانت نفسه قد أوتيت الجند والأعوان ، من الرغبات والشهوات وأخلاق السوء ؟ وجعل الهوى قائدا عليها ؟ كيف يحفظ قلبه من الوقوع فى برائنها ؟ هل يوجد للقلب جند وأعوان وقائد يتولى صيانة القلب وحفظه ؟ !

نعم ! ! يرى الحكيم أن القلب قد أوتى نور المعرفة ، وأن المؤمن قد أوتى عقل الإيمان ، وليس للعدو من القوة ـ مهما تكن الزينة التى أوتيها ـ ما يغلب به على زينة الله التى أعطى للمؤمن ، وهو عقل الإيمان .

ولهذا العقل عند الحكيم الترمذى أهمية كبرى ، إنه قائد جند القلب وأعوانه من أخلاق البر ، وهو الذى يميز له بين خواطر الخير وخواطر السوء الذى يسلط أنواره على ساحة الصدر ، فتبصر فيه عينا قلبه هذه الخواطر ، فيلجأ إلى الله فى حمايته من خواطر العدو ووسوسته ، وفى توفيقه بالنسبة لخواطر الخير والبر .

وينبغى لكى يجد نور العقل طريقه إلى الصدر أن لا يحول دونه شىء بأن يعمل المرء جاهدا على أن يخلى صدره من سلطان النفس ، فإن النفس إذا غلت بها شهواتها ، وثار منها دخانها ، فملأ ساحة الصدر ، امتنع نور العقل من أن يسطع فى الصدر ، وتحير القلب ، ولم يستطع أن يستفيد بما فيه من أنوار المعرفة .

يقول الحكيم :

« والعاقل على قالب فاعل ، وإنما سمى عاقلا لأنه يستعمل عقله ، ويصير قلبه فى عقال عن اتباع الهوى ، ويفرغ صدره عن أشغال النفس فى دنياه ، حتى يصير كمفازة جرداء . حتى إذا أشرق نور العقل على تلك الفسحة الجرداء ، ومرت الخواطر فى الصدر فى عينى الفؤاد ، ميز العقل محاسن الأمور من مشاينها ، فأراه حسن الأمور وشينها ، فهذا (هو) الذى عقل عن الله أمره » .

ومهما يكن من أمر المريد فى جهاد النفس ، فإنها كلما بذل الجهد ،

واستفرغ الوسع ، ثم عاد إلى نفسه ، كلما وجدها كما هى مليئة بالرغبات والشهوات ، كثيرة الكيد والمكر لتحقيق مناها ، والوصول إلى مبتغاها .

فإذا أدرك أنه لم يغن بذلك شيئا ، وأنه لم يعد له فى هذا الميدان مجال ، تحير ، ولجأ ـ مضطرا ـ إلى الله ، ليخلصه مما فى نفسه من أدناس ، وعندئذ يمن الله عليه ، ويخلصه من إسار نفسه ، لأنه هو وحده الذى يملك ذلك .

يقول الحكيم عن هذا المريد الحائر :

« فقد استقام أمر ظاهره . ثم قصد بعد ذلك لباطنه ، فوجد فى باطنه من الفساد أكثر مما كان فى الظاهر ، فمنعها الشهوات ، وقطع العلائق والأسباب ، وتجنب الأفراح ، حتى استفرغ مجهوده فى المجاهدة ، وبقى مضطرا متحيرا .

فعندها من الله تعالى عليه بالأنوار ، فشرح صدره ، فهو على نور من ربه . فتخلص من إسار النفس ، وفساد الباطن ، لأنه وإن جاهد النفس حق المجاهدة ، فإنه لا يطيق أكثر من أن يمنعها ذلك ، ويذللها ، ويكبتها ، فأما الشهوات فباقية ، وضيق الصدر بالأخلاق السيئة باقى ، فلذلك تحير . لأنه قد صار مضطرا ، فعندها يفزع إلى الله تعالى ، ويلجأ إليه بصدق الفزع والاضطرار ، وقد بذل من نفسه الطاقة التى أعطيها ، وقد قال فى تنزيله « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أ إله مع الله قليلا ما تذكرون » ، (النمل : ٦٢) يعلم

العباد أن أحدا لا يقدر على كشف السوء عن صدره وقلبه إلا الله عز وجل الذى خلقه ، فإنه ذلك خلقه فى العباد ، ولا يطمسها إلا خالقها » .

ولهذا السبب لم يكن الأمر معلقا بكثرة العمل قدر ما هو معلق بسلامة القلب وصيانته ، فإن كثرة العمل مع فساد القلب تجعله مشوبا ، أما سلامة القلب فتجعل قليل العمل صحيحاً كاملا مقبولا ، ويعود هذا الأمر إلى حسن الخلق ؛ ولحسن الخلق مراتب .

منها : أن يحسن خلقه مع التكاليف الإلهية بأداء الأوامر واجتناب النواهى .

ومنها : أن يحسن خلقه مع جميع خلقه بحسن المعاشرة والرحمة والمداراة .

ومنها : أن يحسن خلقه مع الله فى أرضه ، فيسلم له تسليما كاملا فى كل شئونه .

هذه هى الصورة الإجمالية للأسس التى يمكن للمريد أن ينطلق منها فى سيره وسلوكه ، عالجها الحكيم الترمذى فى هذه الرسالة بإيجاز يتناسب مع جواب الأسئلة التى وردت إليه من سرخس .

وقد أشار لمن يريد أن يتوسع فيها إلى بعض كتبه الأخرى ، مثل كتاب « رياضة النفس » وكتاب « سيرة الأولياء[١] » .

---

(١) والأول منشور بتحقيق الدكتور على حسن عبد القادر وأربرى ، كما نشره الدكتور عبد المحسن الحسينى ـ رحمه الله ـ بمجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية سنة ١٩٤٦ ، أما الثانى فلا يزال مخطوطا .

وقد تعرض الحكيم فى هذه الرسالة لبعض المسائل الفرعية التى تعترض المريد أثناء سيره وسلوكه ، ومن أهم هذه المسائل :

١ ـ عمل السر وعمل العلانية ؛ أيهما أفضل بالنسبة للمريد !!؟

٢ ـ وهل من شأن المريد أن يندفع إلى أعمال البر ، وأن ينغمس فيها تقربا إلى الله ، أم من شأنه أن ينقبض عن ذلك ، مقتصرا على أداء ما يجب وما ينبغى ، خوفا من نفسه ، وما يشوب العمل من آفات مهلكة !!؟

٣ ـ والوسوسة التى تنتاب المؤمن ، خاصة فى وقت الصلاة، ماشأنها ، ومصدرها ، والامتناع منها ، وهل يمكن التخلص منها جملة !!؟

٤ ـ العلاقة بين التقوى والعلم !

وبالنسبة للمسألة الأولى ، بين أن القلب خزانة الله ، لا يطلع عليها أحد من خلقه ، ولو كان ملكا ، أما الصدر فساحة عامة ، تخطر فيها الخواطر المختلفة : من الملك ، أو من الشيطان .

فالذى يعمل ونفسه حية تراقبه ، فإنها تود لو حققت شهوتها من خلال هذا العمل ، وإن يكن طاعة وبرا ، وذلك بمراءاة الخلق ، واجتلاب حسن الذكر لديهم ، وطلب العلو عندهم ، وغير ذلك من الآفات ، والعدو يزين له ذلك ويحثه عليه ، والقلب ينكر ذلك ويرد على النفس والعدو ما يريدانه .

مثل هذا المريد لم يتخلص بعد من شهوات نفسه وسلطانها ، « فهو وإن أخلص قلبه لله فنفسه تشتهى رؤية الخلق، وعدوه يزين له ذلك، فلا يخلو فى الإعلان أن يكون للنفس والعدو فرصة ونصيب .

ولمثل هذا المريد يكون عمل السر أفضل من عمل العلانية ، لأنه وإن لم يقتل شهوة نفسه فى مراءاة الخلق حين أسر العمل ، لكنه قطع أملها عن ذلك ، حين علمت أنه لا يراه أحد ، فيئست من أن يقضى لها هذه الشهوة ، فخضعت ، وذلت ، وانكمشت ، وضوعف له الأجر على ذلك سبعين ضعفا .

أما إذا كان المريد قد أدب نفسه ، وتخلص من إسارها ، وأصبح لقلبه الغلبة والسلطان عليها ، بحيث تنقاد لأمره ، وتسارع فى إشارته ، فإنه لا يحتاج إلى إخفاء طاعته ، لأنه قد أمن شرها ومكرها ، ووضعها فى قيده وأسره ، وعندئذ يكون عمله قدوة وأسوة ، فيضاعف له الأجر على عمله فى العلن .

يقول الحكيم :

« ثم إن لله عبادا راضوا أنفسهم ، حتى من الله عليهم بالعلم ، وتراكمت على قلوبهم أنوار المعرفة ، وذهبت عنهم وساوس النفس ، لأن الشهوات قد ماتت منهم ، ووقعت قلوبهم فى بحار عظمة الله تعالى وجلاله وكبريائه .

فإذا عمل عملا فى علانية ، لا يحتاج أن يجاهد عنه ، لأن شهوة العبد فى الرياسة ورؤية الناس وتعظيم الخلق له قد انقطعت عنه ، وتصاغرت نفسه إليه فى ملك الله تعالى الذى عاينه بقلبه ، فإذا أعلن به فإنما يريد النصيحة لله فى خلقه كى يقتدوا به ، ويهيج منهم ما يريهم ، ويبعث نفوسهم على ذلك .

« فهذا عبد ناصح لله فى خلقه ، فضوعف له على عمل السر سبعين ضعفا » .

وقد استدل على ذلك بمثل ما حكاه الله تعالى عن عباد الرحمن فى دعائهم ، حيث يقولون : « واجعلنا للمتقين إماما » (الفرقان : ٧٤) .

وبالنسبة للمسألة الثانية .

فقد ذكر أن القلب والنفس شريكان فى هذا الجسد ، وأن قوة القلب بالمعرفة وما يتعلق بها ، وأن أفراحه بالله ، وبفضل الله وبرحمته .

وأن قوة النفس بالشهوات وما ينتمى إليها ، وأن أفراحها بتحصيل مناها من العز والعلو والرفعة .

وعلى المريد أن يعمل على ما فيه زيادة قوة القلب ، وعلى حصار النفس وقواها .

فإنه متى قويت النفس غلبت القلب . واستولت على مدنه وقراه ورعيته ، ووجهتها لتحقيق أفراحها .

أما إذا منعت من تحقيق شهواتها ، استرخت وذبلت وكلت ، وانتعش القلب وحي . وظهرت أفراحه بفضل الله وبرحمته .

وإذا منع المريد النفس من شهواتها فى المباحات ، فقد يظن أنه قد أمن من شرها ، لكنه فى الحقيقة لم يعلم أن النفس إذا يئست من تحقيق شهواتها فى المباحات طمعت فى تحقيق شهواتها فى الطاعات ، فهى تشاركه فى عمله ، وقد تشاركه فيما يرد عليه من العطاء ، حتى تفسد عليه عمله ، وتفسد عليه عطاءه ، لأن فى الطاعات وموارد العطاء لذة لها ، تعوضها عن

كثير من الملذات، ففيها نظرات الإعجاب ، والتصنع والمراءاة ، والنظر إلى قبول الناس ورضاهم ، والتكلف لهم ، والمحافظة على ماتكتسبه من المنزلة عندهم . . إلى آخر هذه الآفات .

والاسترسال فى أعمال البر ، مع مافيها من هذه الآفات ، خطر على المريد ، وينبغى عليه أن يمنعها من أفراحها بعدم الاسترسال فيها . بل يتنقل بين الطاعات ، كلما وجدت النفس لذة فى طاعة حرمها منها ، حتى لاتعتمد عليها ، وانتقل إلى غيرها ، مما تشعر معه بالكلفة والمشقة ، وتيأس أن تحقق خلالها شهوة من شهواتها .

يقول الحكيم :

« فقد بان لك الأصل، أن ههنا فرحتين : فرحة القلب بالله، وبفضله وبرحمته ، وفرحة النفس بالشهوة واللذة . فمن أحب أن يصل إلى الله ، نظر إلى كل شيء تفرح به النفس من أمر دين أو دنيا فمنعها ذلك الفرح حتى تضعف وتموت فى جوفه غما وكمدا ، ومن منعها أفراح الشهوات واللذات ، ثم بسطها فى أفراح الدين من أعمال البر انبسطت ، ولا تزال قوية حية لأن نصيب الهوى معه فى كل عمل من أعمال البر . . .

« وكل عمل من أعمال البر تجد لذته ، وللهوى فيه نصيب لم يخلص له ذلك ، فحقيق عليه أن ينتقل إلى عمل غيره ، لكى يحرمها لذتها ، فاذا فعل ذلك بجهده وطاقته شكر الله تعالى له ذلك فى العاجل ، فكان من شكره أن فتح قلبه لأنواره » .

أما المسألة الثالثة ، فالحكيم الترمذى يقسم الوسوسة إلى قسمين :

١ ـ مايكون من الشيطان .

٢ ـ وما يكون من النفس .

والشيطان قد يخنس ، وقد ينكمش ، وقد يرد ، وقد يهرب .

أما النفس فانها ملازمة لاتفارق ، فوسواسها أشد وأعتى ، والتغلب عليه أشق وأصعب :

وإذا خلا الصدر من ذكر الله ، وخلا من عظمه الله ، كان مسرحا للوساوس بنوعيها ، « فاذا جاءت النفس بأشغال شهواتها ولذاتها ، فأوردت خواطرها فى الصدر بين عينى الفؤاد ، ولم يكن هناك نور يشرق ، أحاط بالقلب فى ذلك الصدر مثل الدخان ، فبقى الفؤاد فى ظلمة ، فهناك وسواس النفس ، ووسواس العدو ، يتردد بعضها على إثر بعض » :

أما العدو ، فعندما يجد العبد قد اشتغل بأفراحه وزينته ، وتمكن حبها من نفسه ، فانه ينتهز الفرصة عندما يشتغل العبد بشىء من الطاعة أو العبادة ، ليأتيه فيظل يزين له مالديه من بضاعته ، ويحادثه عنها ، ويوسوس إليه بشأنها .

ولو أن العبد نفاها عن نفسه جملة ماوجد العدو سبيلا إلى محادثته بها أو الوسوسة بتزيينها .

وقد ضرب الحكيم مثلا لهذا الموقف الذى يقفه العدو من العبد ، مبينا أن هذه الشهوات الدنيا من دعوى إبليس وجنوده ، حيث قال : « لأزينن لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين »

(الحجر : ٣٩) وحيث قال الله تعالى له : « وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » (الإسراء : ٦٤) فيقول الحكيم :

« ما تقول فى رجل مر بك ، وفى يده معزفة أو مزمار . وأنت فى المسجد ، فوثبت فأخذت رداءه ، ثم عدت إلى مجلسك فوضعته وقعدت عليه !! ؟ وكان سبيلك أن تثب إليه فتأخذ مزماره فتكسره وتغير المنكر !! فأخذت رداءه للرغبة التى فيك ، ولهوت عن مزماره ، وقلت مبالاتك به ، فتبعك ، فقام على رأسك بمزماره فأخذ يزمر ، فتعاظم ذلك عندك . فأقبلت بالنكير عليه ، وقلت : تزمر فى بيت الله على رأسى ! ؟ فقال لك : أخذت ردائى ، وزاحمتنى فيه ، فإنما دخلت عليك لحال الرداء ، ولولا ذلك لم أدخل عليك ، ولم أجترىء عليك ، فلما أبيت أن ترده على غمنى ذلك وأحزننى ، فأنا أزمر بأصوات الإفراط لأتسلى بذلك من الغم الذى أجده لمكان ردائى ، فإن أردت أن أكف عن ذلك وأخرج عنك فرد على ردائى ، وإلا فهذا دأبى معك » .

فالرداء يمثل شهوات هذه الدنيا ، ورغبة النفس متوجهة إليها ، وصاحب الرداء هو العدو صاحب الدعوى فى الشهوات ، ومزماره وما يزمر به هو نفخه ونفثه ورجسه ووسوسته ، فما دامت رغبة الإنسان لا تنقطع عن شهوات الدنيا ، فإن الشيطان قائم فى صدره بمزماره ينفخ فيه ، ويوسوس ، ولا ينقطع عنه حتى تنقطع رغبة الإنسان فى هذه

الشهوات ، ويلجأ إلى الله مخلصا فى توجهه إليه ، تاركا هذه الأفراح الدنيوية ، وهى حظ العدو ، ليحل محلها فرحه بفضل الله وبرحمته ، حينئذ يخنس العدو وينكمش ، ويزول نفخه ووسواسه بذكر الله عز وجل .

أما إذا ران على القلب رين الذنوب ، ورين أخلاق السوء ، الناشئة من حب الدنيا وحب العلو ، وأصبح الكبر أميرا على النفس ، والنفس أميرا على القلب ، لم يرج للعبد صلاح .

ويمثلها الحكيم بكورة أو إقليم مزدهر مطمئن ، تحت إمرة أمير عدل . إذ دخل فيه خارجى متمرد فغلب عليه ، ووضع الأمير فى بيت مغلق لا يستطيع منه التصرف ، ولا يدرك فيه ما يصيب رعيته ، فأى صلاح يرجى لهذه الكورة أو هذا الإقليم ! !

كذلك شأن القلب حين يكون أميرا على سائر أعضاء البدن ، فإنه يعمر صدره وجوارحه بنور المعرفة ، والعدل فى القول والعمل ، فإذا ولج حب الدنيا ، وجاءت النفس فغلبت بشهواتها ، وامتلأ الصدر بدخانها وغيومها ، وحالت بين أنوار المعرفة فى القلب وشعاع العقل فى الصدر ، توقف عمل الأمير ، ولم ينتفع القلب بما أوتى من معرفة الله ، وما أوتى من العقل .

فعلاج الوسوسة الصادرة من العدو هو ذكر الله ، واستحضار عظمة الله فى الصدر ، وذلك بأن يجاهد المرء حتى يخلى صدره من أشغال الدنيا ، لكى ترد عليه الأنوار ، وعندئذ يطالع بقلبه آثار الملكوت ،

وآثار الجنة والنار ، وآثار الطاعة والمعصية ، فيناله من الخوف ما يذهله عن الاستماع إلى وسوسة الشيطان ، فإذا تتابعت الأنوار ، وتواردته العطايا ، وانكشف الغطاء عن جلال الله وعظمته ، لم يستطع العدو أن يقترب منه .

وذلك « بمنزلة مرج أو غيضة فيها أشجار الحطب ، والبردى ، والقصب ، والحلفا ، والطرفا ، ومن كل نوع ، فماذا يتهيأ لك أن تبصر إلا موضع قدمك ! ؟ فإذا أقبلت على حصد ذلك فحصدته أو حرقته حتى صارت مفازة جرداء ، فرأيت هناك أثر مخاليب أسد وقع عليك من الخوف ما يملأ صدرك .

« ولو كان من قبل أن يصير مفازة لم يظهر عندك أثره ، فلم تجد من الخوف شيئاً » .

مثل ذلك مثل رجل من سائر الرعية ، يناله الناس بالأذى ، استهانة به ، فإذا اتخذ لدى الخليفة أو الوالى جاها ، تقاصر الناس عنه لجاهه عند الوالى ، فإذا تقلد عملا منه ، أو لبس شعاره ، هابه الناس ، ولم يجرءوا على المساس به . وانقطعت أطماعهم عن أذاه .

أو كمثل دار فيها عزف وقصف وألوان الأغانى والسرور ، فبيناهم فى فرح ذلك السرور والطرب ، إذ دخل داخل فقال : جاء الأمير . أليس تخمد تلك الأصوات ، ويذهل أولئك القوم عن جميع ما هم فيه لهول مجيئه ، ولهيبته .

ولكن كيف هذا !! والنفس هى التى تتطلع إلى هذه الشهوات ،

وهى التى تغلى بها نزواتها ورغباتها حتى تملأ ساحة الصدر دخانا وغيما ، فتظل وسوسة النفس قائمة ومستمرة ، ويظل العدو متربصا بغفلة يغفلها العبد عن ذكر الله ، ليعاود الكرة ، ويستأنف الوسوسة !!

إنه كما كان علاج الوسوسة الصادرة من الشيطان ماثلا فى ذكر الله عز وجل ، واستحضار هيبته وعظمته ، كذلك يكون علاج الوسوسة الصادرة من النفس فى ذكر الموت ، « لأن ذكر الموت إذا دام على النفس أمات الشهوات فيها ، وزهدها فى عينها ، وحقرها وصغرها ، لذكر زوالها ، وانقلاب حالها » .

وهكذا ، لا يزال العبد ينفى هاتين الوسوستين بهذين الذكرين ، حتى يستولى على القلب هذا الذكر ، ويستنير القلب . ويأتيه المزيد من الله من الخوف .

« فإذا جاء الخوف ، ولزم القلب ، صار القلب خاليا من الوسوسة ، لأن سلطان المعرفة قد ظهر على القلب ، وقعد القلب أميرا ، فصار الصدر — فى الخلوة والسكون — كدار أمير المؤمنين — فى الدنيا — لا يكاد يسمع فيها حس ولا مس ، ولا وقع قدم ، ولا همس ، قد أخذتهم هيبة شهود أمير المؤمنين ، وقربهم منه » .

ونلاحظ هنا — مرة أخرى — تركيز الحكيم الترمذى على آداب المريدين بمجاهدة النفس ، وحرمانها من كافة رغباتها ومشتهياتها ، وبذل الوسع والطاقة فى ذلك ، حتى تخلو ساحة الصدر تماما من غبارها ودخانها ، ويصبح أجرد أزهر ، بحيث يصلح محلا لظهور أنوار المعرفة فيه ، وبحيث يتمكن شعاع العقل من أن يسطع فى كل جوانبه ونواحيه ،

فلا تخفى على القلب فيه خافية ، وعندئذ تتوارد عليه موارد العطاء الإلهى ، وتتتابع حتى يمر القلب طاهرا نقيا إلى ما أعد الله له من مراتب القربة .

وأما العلاقة بين التقوى والعلم ، وهل يفضل التقى إذا كان قليل العلم على العالم كثير العلم ، إذا لم يكن معه تقوى ، فقد أجاب الحكيم فى اختصار يبين منزلة العلم عنده .

إن العلم فى حد ذاته علم ، ولكن الذى يحصله لا يسمى عالما إذا لم يبعثه إيمانه على التقوى ، فالعلم — ولو كثر — بغير تقوى لا يجعل صاحبه عالما على وجه الحقيقة .

يقول الحكيم :

« فاعلم أن الذى لا يكون معه كثير تقوى ليس بعالم ، وذلك حمال أسفار . قال الله فى تنزيله : « مثل الذين حملوا التوارة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » الآية (الجمعة : ٥) فلما تركوا العمل بما فيها سماهم حمال أسفار » .

وبهذا يكون مقياس العلم عنده ما يتركه من أثر فى القلب ، ويكون مقياس ما يتركه من أثر فى القلب ، ما يظهر من أثر فى عمل الجوارح ، لا ما يظهر من آثار على اللسان ، فإن أثره فى القلب يحتسب للعبد فى ميزانه ، أما أثره على اللسان فهو حجة على العبد يوم القيامة .

ولم يفت الحكيم أن يختم رسالته بأن العبد إنما يتعلم ويهتدى بما فى القرآن ، فهو الحبل المتين ، وهو العصمة من الزيغ ، وأنه لولا هداية

القرآن لم نعرف ما يصلحنا ولا ما يفسدنا ، وأن على العبد أن يعتصم بالله فى مجاهدته لنفسه ، وهو يجاهد نفسه بقوة ما أعطى من علم وعقل ، واثقا أنه لا ينجيه إلا فضل الله ورحمته ، واعتصامه به .

أما إذا التجأ إلى قوته ، واعتمد على ما أوتى من العلم فقد ترك الطريق وخذل ، « ومن يعتصم بالله فقد هدى صراط مستقيم » .

وعلى الله قصد السبيل ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

دكتور

عبد الفتاح عبد الله بركة

مدرس العقيدة والفلسفة

بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، ولى الحمد وأهله :

أما بعد ، فقد فهمت مسائلك ، وما سألت من شأن المريد ، وما الذى ينفعه ويضره فى سيره إلى الله تعالى ، وكيف ينبغى أن يكون مبتدأ أمره .

فأهل(١) الإرادة على ضربين :

فمنهم من سار فى طريقه إلى ثواب الله تعالى(٢) ليعبده ، فيؤدى(٣) فرائضه ، ويجتنب محارمه ، ثم يتطوع من أنواع البر ما تهيأ له ، يرجو بذلك النجاة من النار ، والوصول إلى ثوابه الذى أعد لعماله ، من الله تعالى .

ومنهم من سار إلى الله تعالى ليعبده ، فيؤدى فرائضه ، ويجتنب محارمه ثم يرجع إلى باطن أموره ، فيجد فى صدره آفات كثيرة من حب الدنيا

---

(١) فى مخطوط ظ : وأهل

(٢) تعالى ساقطة من مخطوطة ز

(٣) فى مخطوطة ز تعالى بدلا من عز وجل

وطلب العز ، وطلب العلو والكبر والحرص وحريق الشهوات ، وغلبة الهوى ، والطمع والحسد ، وحب الثناء والمحمدة ، والعلائق التى تعمى القلب .

فهذا قلب لايجد السبيل إلى الله تعالى مع هذه الأدناس ، لأنه فى حبه دنياه مخالفة ربه ، أحب ما أقصاه الله وحقره ، وفى طلب العلو مضاهاة الرب تعالى ، وفى حريق الشهوات عظائم الفتن ، وفى غلبة الهوى الجور كله . والإعراض عن حقوق الله عز وجل(١) ، وقلبه محجوب عن الحكمة ، وعن علم تدبير الله تعالى(٢) ، فهذا أسير النفس يؤدى الفرائض مع العلائق ، ويجتنب المحارم مع العلائق(٣) ، وعامة مايعبد الله بالهوى .

فهذا عبد يحتاج إلى أن يقيم الصدق فى كل أمر وعمل ووقت ، مشغول بنفسه .

فمن أراد ثواب الله عز وجل اقتصر على هذه المجاهدة ، وطلب الصدق فى كل أمر ليخلص إليه .

---

(١) فى مخطوطة ز تعالى بدلا من عز وجل .
(٢) ساقطة من مخطوطة ز ، وهذه التنزيهات الإلهية سوف لا أنبه على وجودها أو سقوطها بعد ذلك إذ لا فائدة ترجى من وراء هذا التنبيه .
(٣) فى المخطوطتين بتسهيل الهمزات إلى الواو أو الياء ، وهكذا فيما شابه هذه الكلمات ، وقد فضلت إظهارها جريا على المألوف لنا ، حيث لا ضرر فيه ، وسوف لا أنبه على مثلها بعد ذلك اعتمادا على هذا التنبيه .

ومن أراد الله تعالى مر في[١] طريق جهده، طالبا للصدق في الباطن حتى يفتح له الباب . فإذا فتح له الباب ، وأعطى العطاء ، فذلك نفقة الطريق ، ليقوى فيسير ، فكلما سار زيد من العطاء حتى يتقدم ، فلا يزال هكذا حتى يصل إلى الله تعالى قلبا ، فيرتب له على قدره ، فهو ولى الله . واقف بقلبه بين يديه حيث ما رتب له ، ومنها يصير إلى الأعمال بقلب قوى غنى بالله ، ونفس صحيحة قد زايلها الخبث والخبائث . وفارق[٢] الهوى وطلب[٣] العلو والأدناس .

وانما في هذه المسائل كتابان : كتاب رياضة النفس[٤] ، والآخر عنوانه : كتاب سيرة الاولياء ، وفيهما الشفاء بإذن الله تعالى لمن ابتغى علم ما فيهما من شأن هذه المسألة .

* * *

(١) في ظ : عن ، بدلا من : مرفي .
(٢) في ز : وفارقه .
(٣) في ز : فطلب .
(٤) طبعت هذه الرسالة في كتاب جمع بين كتابي « الرياضة وأدب النفس » بتحقيق الدكتور على حسن عبد القادر وأربرى ، أما «سيرة الأولياء» فلا يزال مخطوطا .

وســـــألت

عن صلاح القلب ودوائه ، وعن فساده ودائه

فصلاح القلب فى الأحزان والهموم ، ودواؤه بمداومة الذكر لله تعالى .

وفساده من أفراح الدنيا وسرور أحوال النفس ، وداؤه إعراضه عن ذكر الله عز وجل ، وإقباله على ما يلهيه عن ذكر الله تعالى .

والفرح للنفس كالمـاء للحوت ، فحياة الحوت بالمـاء ، وإذا بقى على الأرض لم يعش . فإذا منعت النفس أفراح الدنيا ذبلت وكلت ، واسترخت قواها ، وانقبضت عن تحللها نشاطا ، والأحزان نفى[1] عيشها[2] ، حتى يتخلص القلب من تلك الأشياء التى كانت تورد عليه من قبلها وأدناسها .

فإذا وصل القلب إلى الله تعالى أحياه . فإذا أحياه حييت النفس بحياة القلب بنور الله تعالى ، فكان القلب ميتا بشهواتها وأفراحها ، فلما راضها صاحبها ، ومنعها الأفراح ، شكر له ربه ، لأنه قد جاهد فى الله

---

(١) فى ظ وضعت النقطتان متجاورتين فوق النبرة ، وفى ز : بقى .
(٢) والعبارة هكذا فى الأصلين .

حق جهاده ، فهداه سبيله كما وعد فى تنزيله فقال « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » (العنكبوت : ٦٩) .

فلما فتح له الباب مر سائرا إلى الله عز وجل بقلبه ، فأتته العطايا نفقة الطريق ، حتى إذا وصل إليه أحياه بنوره فى القربة ، وصار من المقربين فنال الفرح بالله ، من بعد ما كان فرحه بالدنيا والنفس وأحوالها ، وصار[1] وجيها عند الله عز وجل .

فإذا ترك المداومة على ذكر الله تعالى قسا قلبه ، لأن الذكر يشتمل الرحمة من الله تعالى ، وقد وعد الله العباد فى تنزيله فقال : « فاذكرونى أذكركم » (البقرة : ١٥٢) فإذا جاءت الرحمة رطب القلب ولان ، وأنطفأت حرارة النفس ، وجذبتها[2] تلك الرحمة الواردة على القلب ، وذهبت قسوته وفظاظته وغلظه .

والقلب والنفس شريكان فى هذا الجسد ، وقوة القلب من المعرفة والعقل والعلم[3] والفهم والذهن والفطنة والحفظ والحياة بالله[4] ، وأفراح هذه الأشياء عاملة فيه مقوية له ، محيية له .

---

(١) ساقطة فى ر .
(٢) فى ز : وحدتها .
(٣) فى ظ : فالعلم .
(٤) فى المخطوطتين لفظة مقحمة يمكن أن تقرأ : والعهد ، وأن تقرأ : والعبد ، وقد حذفتها ، لأن معناها لايظهر لى فى السياق .

وقوة النفس من الشهوات واللذات ودرك المنى والعلو والعز والرفعة وقضاء النهمات ، وأفراح هذه الأشياء عاملة فى النفس ، مقوية لها .

وذلك كله جنود الهوى ، والهوى ملك النفس .

والمعرفة ملك القلب ، وما ذكرنا من تلك الأشياء جنوده .

فمتى ما حييت النفس ، وقويت هذه الأفراح ، غلبت على القلب ، فذهبت حياة القلب بتلك الأشياء التى يحيا بها القلب ، وصارت أفراحه دنياوية[1] .

ومتى ما منعت النفس هذه الشهوات ودرك المنى ، ذبلت واسترخت ، وضعفت وبليت[2] ، وتراكمت عليها الغموم والهموم .

فبهموم المنع والفطام ذهبت قوتها ، وحي القلب بتلك الأشياء التى وصفنا بديا ، وظهرت أفراحه بالله ، ولذلك قال تعالى : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » (يونس : ٥٨)

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : نفس ابن آدم شابة ، ولو التقت ترقوتاه[3] من الكبر . إلا من امتحن الله قلبه للتقوى ، وقليل ماهم .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله

---

(١) فى ز : دنيابيه .

(٢) غير واضحة فى النسختين ، وهذا أقرب اجتهاد .

(٣) فى ظ : ترقواته .

عليه وسلم : يهرم ابن آدم ويشب منه اثنتان : الحرص على المال ، والحرص على العمر(١) .

وحث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذكر الموت فقال : اذكروا هادم اللذات ، فما ذكر عند كثير إلا قلله ، وما ذكر عند قليل إلا كثره . ذكره بإسناده عن أبي هريرة(٢) .

---

(١) روى البخاري في كتاب الرقاق عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله وسلم: يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان. حب المال وطول العمر

وروى مسلم في كتاب الزكاة باب كراهة الحرص على الدنيا رقم ١٠٤٧ عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص على المال ، والحرص على العمر كما رواه ابن ماجه في كتاب الزهد باب الأمل والأجل رقم ٤٢٣٤ عن أنس رضى الله عنه بنفس الرواية وانظر سنن الترمذي في كتاب الزهد، وكتاب القيامة، ومسند أحمد في مواضع مختلفة .

(٢) روى ابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثروا ذكر هاذم اللذات . يعنى الموت ، كتاب الزهد ، باب ذكر الموت والاستعداد له رقم ٤٢٥٨ .

ورواه الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكثروا ذكر هاذم اللذات . يعنى الموت وقال : هذا حديث غريب حسن . كتاب القيامة ، وكتاب الزهد .

وقد رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت ، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

ونلاحظ هنا أن الناسخ قد حذف إسناد الحكيم إلى أبي هريرة واكتفى بذكر الصحابي والمتن حيث قال : ذكره باسناده عن أبي هريرة .

قال : معناه : أنك إذا ذكرت الموت علمت أنك مسلوب كثيره ، وإلى فناء آخره ، فإذا ذكرت ذلك قلله فى عينك ، وإذا ذكرت هذا علمت أن قليل الدنيا كثير لمن لا يدرى أى ساعة بساعة يفجؤه بالموت ، فالموت هادم اللذات ، فإذا ذكرت هادمه ذهب بأفراحك فأبدلها هموما وأحزانا .

فقد بان لك الأصل أن ههنا فرحتين : فرحة القلب بالله وبفضله وبرحمته ، وفرحة النفس بالشهوة[١] واللذة . فمن أحب أن يصل إلى الله تعالى نظر إلى كل شىء تفرح به النفس من أمر دين أو دنيا . فمنعها ذلك الفرح حتى تضعف وتموت فى جوفه غماً وكمدا .

[و] من منعها أفراح الشهوات واللذات ، ثم بسطها فى أفراح الدين من أعمال البر انبسطت ، ولا تزال قوية حية ، لأن نصيب الهوى معه فى كل عمل من البر ، فلا[٢] يزال صاحب تخليط وأدناس وفى جهد ، [و] إن ترك جهده بقى مع الأدناس ، ولا يصل إلى الله تعالى مع الأدناس والهوى .

وذلك قوله تعالى « وجاهدوا فى الله حق جهاده » (الحج : ٧٨) فحق جهاده أن يطمس عن النفس كل فرح يجده فيها من دين أو دنيا .

وكل عمل من أعمال البر تجد لذته وللهوى فيه نصيب ، لم يخلص له ذلك ، فحقيق عليه أن ينتقل إلى عمل غيره ، لكى يحرمها لذتها . فإذا

---

(١) فى ز : بالشهوات

(٢) فى ظ : ولا

فعل ذلك بجهده وطاقته شكر الله تعالى له ذلك فى العاجل ، فكان من شكره أن فتح قلبه لأنواره .

فإذا أشرق ذلك النور فى الصدر ، وجدت النفس من تلك العطايا ما لهت [به] عن لذات الدنيا وشهواتها .

ثم به الحاجة بعد ذلك إلى حراسة النفس أن لا تأخذ من هذه العطايا بلذتها ما توقعه فى ورطـــة فتهلكه ، لأن النفس إذا وجدت لذة العطاء انتشرت بعد الذبول ، وانبسطت بعد الخمول ، والخطر العظيم ههنا .

ومن هنا سقط عامة السائرين إلى الله تعالى بقلوبهم فى أودية خدائع النفس ، وقد أجملت لك فى هذا الجواب جواب ألف مسألة من توابعه وفروعه .

* * *

وأما ما سألت

ما معنى الولاية والمحبة

فإن الموحدين كلهم أولياء الله وأحبابه ، والله وليهم ، ومحبهم ، ومحبوبهم ، والاهم بالمنة فوالوه بالتوحيد .

ثم للتوحيد عليهم حق الوفاء بما فى التوحيد . فوقع الجهد على العباد

في هذا الوفاء ، بما في نفوسهم من المنازعة ، لأن الهوى ينازع صاحبه ويدعوه إلى ما فيه ترك الوفاء للتوحيد .

والولاية على وجهين :

ولاية يخرج بها العبد[1] من العداوة ، وهو ولاية التوحيد .

وولاية يخرج بها من الخيانة ، فيكون أمينا من أمناء الله عز وجل ، قد جاهد نفسه في ذات الله تعالى ، حتى كف نفسه وجوارحه السبع عن محارم الله تعالى وأدى فرائضه فلزمه اسم الورع ، ثم ألقى الشهوات وفضول الأشياء المباحات من الكلام والنظر والاستماع ، والطعم والشرب ، والركوب واللباس ، والمكاسب حرصا ، فلزمه اسم التقوى ، فيقال : متقى ، فقد استقام أمر ظاهره .

ثم قصد بعد ذلك لباطنه ، فوجد في باطنه من الفساد أكثر مما كان في الظاهر ، فمنعها الشهوات[2] بعد ذلك[3] ، وقطع العلائق والأسباب ، وتجنب الأفراح ، حتى استفرغ مجهوده في المجاهدة ، وبقى مضطرا متحيرا .

فعندها من الله تعالى عليه بالأنوار ، فشرح صدره ، فهو على نور من ربه . فتخلص من إسار النفس وفساد الباطن ، لأنه وإن جاهد النفس حق المجاهدة ، فإنه لا يطيق أكثر من أن يمنعها ذلك ، ويذللها ، ويكبتها

---

(١) ساقطة من ظ .

(٢) ساقطة من ز .

(٣) ساقطة من ظ .

فأما الشهوات فباقية ، وضيق الصدر بالأخلاق ـ السيئة باقى (*) فلذلك تحير ، لأنه قد صار مضطرا ، فعندها يفزع إلى الله تعالى ، و يلجأ إليه بصدق الفزع والاضطرار ، وقد بذل من نفسه الطاقة التى أعطيها ، وقد(١) قال فى تنزيله : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ، قليلا ما تذكرون » (النمل : ٦٢) يعلم العباد أن أحدا لا يقدر على كشف السوء عن صدره وقلبه إلا الله عز وجل الذى خلقه ، فإن ذلك خلقه فى العباد ، ولا يطمسها إلا خالقها .

وإنما يطمسها إذا جاهد العبد بطاقته التى أعطى ، فإذا بذل الطاقة رجع إلى نفسه فوجدها كما كانت ، فعندها يصدق فى الالتجاء(٢) إلى الله تعالى ، فإذا فعل ذلك أنجز له ما وعد العباد فى تنزيله ، فرحمه ، وولى أخذه من نفسه بتلك الأنوار ، فلزمه اسم الولاية ، فهو ولى الله تعالى ، يوالى حقوقه ، وينصر ربه ، والله تعالى يواليه بالهداية ، وينصره على نفسه وهواه(٣) ، فهو ولى الله ، والله وليه وناصره ، ونعم المولى ونعم

(*) هكذا فى الأصل بإثبات الياء على خلاف المشهور ، وكذلك لفظ متقى فى الصفحة السابقة .

(١) ساقطة فى ظ .

(٢) فى ظ : اللجأ بدلا من الالتجاء .

(٣) يقول القشيرى فى رسالته : الولى له معنيان ، أحدهما : فعيل بمعنى مفعول ، وهو من يتولى الله سبحانه أمره ، قال الله تعالى : « وهو يتولى الصالحين » (الأعراف : ١٩٦) ، فلا يكله إلى نفسه لحظة ، بل يتولى الحق سبحانه رعايته ، والثانى : فعيل مبالغة من الفاعل ، وهو الذى يتولى عبادة الله

النصير . فإنما ندبه فى تنزيله لذلك فقال : « وجاهدوا فى الله حق جهاده» (الحج: ٧٨) ثم بعد المجاهدة «واعتصموا بالله هو مولاكم»(الآية نفسها) فهذا بعد المجاهدة فى وقت الاضطرار ، ثم مدح نفسه (قائلا) : « فنعم المولى ونعم النصير » (الآية نفسها) .

* * *

وسـألت

عن العاقل الذى يعقل عن الله أمره

فإن العقل إنما أعطى المؤمن ليزين الطاعات فى صدره ، ويريه قبح المعاصى ، فهذا فعل العقل ، ومسكنه فى الدماغ ، وإشراقه فى الصدر وذلك قوله : « ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم » (الحجرات : ٧) .

وإنما زين الإيمان فى القلب بالعقل .

والكافر لم يعط ذلك ، فبقى الإيمان فى قلبه بلا محبة ولا زينة ، فوسوس إليه العدو بما أعطى من الزينة ، حتى أشرك بالله ، وأقبل على عبادة من دونه ، وذلك قوله . « لأزينن لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين » (الحجر : ٣٩ - ٤٠) .

وطاعته ، فعبادته تجرى على التوالى ، من غير أن يتخللها عصيان ، وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولى وليا .

فأعطى العدو زينة بلوى للعباد ، ومحنة لهم ، فأغواهم بها .

فمن أعطى من العباد محبة الإيمان وزينته وهو العقل ، لم يقدر العدو أن يغلب على قلبه بما[١] ورد من زينته وهم عباده المخلصون ، وقال : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا » (الإسراء : ٦٥) فليس للعدو من القوة بما جاء به من تلك الزينه التى أعطيها أن يغلب على زينة الله التى أعطى المؤمن : وهو العقل .

فإذا صار الذى أغواه بتلك الزينة إلى النار ، فألقى فى[٢] ذلك العذاب . قال فى ذلك العذاب : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » (الملك : ١٠) ، فكانوا قوما لدا لا عقل لهم .

عن الحسن رحمة الله عليه[٣] فى قوله تعالى : « وتنذر به قوما لدا » (مريم : ٩٧) قال : صم آذان القلوب ، وتركت الأجساد[٤] ،

---

(١) فى ز : مما .

(٢) فى ساقطة فى ظ ، ومضافة فوق السطر فى ز .

(٣) الترحم مثبت فى ز لا فى ظ .

(٤) هكذا هى فى ز أما فى ظ فهى : وتركب ، والأجساد ساقطة ، ولعل المعنى المقصود : وسائل الإدراك القلبية ، لاحواس الأجساد .

وقد ذكر ابن كثير فى تفسير قوله « لدا » : أى عوجا عن الحق مائلين إلى الباطل .

وقال الضحاك : الألد الخصم ، وقال القرطبي : الألد الكذاب ، وقال الحسن البصرى : « قوما لدا » صما ، وقال غيره : صم آذان القلوب ، تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٤٠ .

فإذا صاروا صما وعميا آذان قلوبهم ، وأعين قلوبهم ؛ لأن قلوبهم بضعة لحم ميتة لم يحيها الله بنور الحياة ، وقال فى تنزيله : « أو من كان ميتا فأحييناه » (الأنعام : ١٢٢) فتلك بضعة القلب ، فإذا أحياها الله عز وجل بنوره ، فصارت أذنه سميعة ، وعين قلبه بصيرة ، فهذا عبد توكل الله بجلاله وعظمته ، وجوده وكرمه ، فمن عليه بالوكالة ، وأعطاه من سلطان العقل والمعرفة بالله ما لم يبق للعدو عليه سلطان يدعوه إلى الشرك ويزينه[1] له ، لأنه لا يزدان عنده الشرك بعد ما خلص إلى قلبه زينة العقل الذى ذكر الله عز وجل فى تنزيله فقال : « وزينه فى قلوبكم » (الحجرات : ٧) .

والعبد أعطى هذا العقل ليمكن له فى صدره حتى يجد مفسحا للاشراق ، فإذا حشى صدره من أشغال النفس وأحوالها . فصار صدره كمرج[2] من المروج ، فيه من كل ضرب من حشيش النبات ، فما يغنى هذا الإشراق !!

فإذا تفرغ من هموم الدنيا وأشغالها كان قد مكن العقل فى الإشراق فى الصدر ، فعندها يعقل عن الله أمره .

والعاقل على قالب فاعل ، وإنما سمى عاقلا لأنه يستعمل عقله ، ويصير قلبه فى عقال عن اتباع الهوى ، ويفرغ صدره عن أشغال النفس

---

(١) فى ز : ويزيله .

(٢) المرج : أرض واسعة ذات نبات ومرعى .

فى دنياه ، حتى يصير كمفازة[1] جرداء ، حتى إذا أشرق نور العقل على تلك الفسحة الجرداء ، ومرت الخواطر فى الصدر فى عين الفؤاد ، ميز العقل محاسن الأمور من مشائنها ، فأراه حسن الأمور وشينها ، فهذا الذى عقل عن الله أمره ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم[2] .

* * *

(١) المفازة : الصحراء

(٢) ذكر الحافظ السيوطى أن الطبرانى روى فى الكبير عن أبى الدرداء قول الرسول صلى الله عليه وسلم : تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم ، فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله تعالى له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وما أقبل عبد بقلبه على الله تعالى إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة ، وكان الله تعالى بكل خير إليه أسرع . وقد أشار السيوطى إلى ضعفه . الجامع الصغير .

وفى هذا المعنى روى الحاكم عن معقل بن يسار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول ربكم : يا ابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ قلبك غنى ، وأملأ يديك رزقا ، يا ابن آدم لا تباعد منى فأملأ قلبك فقرا ، وأملأ يديك شغلا ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، أى على شرط الشيخين ، وأقره الذهبى كتاب الرقاق ج ٤ ص ٣٢٦ .

وســـألت

عن العدو ، هل يطلع على ما فى قلب العبد

فاعلم أن القلب خزانة الله ، ليس لأحد فيها مطلع ، لا للملائكة ولا أحد .

وأما الصدر فالخواطر فيه من الملك والوسواس .

والعمل الذى يسره العبد من العباد يضاعف على العلانية سبعين ضعفا ، والذى يسره من الحفظة ويعلنه للعباد يضاعف على عمل السر سبعين ضعفا .

هكذا روى عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : السر أفضل من العلانية ، والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء (١)

فعامل يسره وفى نفسه شهوة رؤية الخلق ، وهو يرد ذلك ويدفعه ،

---

(١) روى الترمذى فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول ، الرجل يعمل العمل فيسره ، فإذا اطلع عليه أعجبه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : له أجران : أجر السر وأجر العلانية ، وقال : هذا حديث غريب ، وقد روى الأعمش وغيره عن حبيب بن أبى ثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسلا . كتاب الزهد .

كما روى ابن ماجه فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ، إنى أعمل العمل فيطلع عليه ، فيعجبنى ، قال : لك أجران : أجر السر وأجر العلانية . رقم ٤٢٢٦ .

والعدو يردد عليه ذكر رؤية الخلق . ونفسه تشتهى، وقلبه [1] ينكره[2]، ويرد على النفس والعدو ما أتيا به .

وهذا قد حسم باب العدو عن نفسه ، فلا يقدر أن يرائى به ، لأنه لم يعلنه ، فهو مضاعف سبعين ضعفا على الذى أعلنه ، لأن الذى أعلنه ، فهو وإن أخلص قلبه لله فنفسه تشتهى رؤية الخلق ، وعدوه يزين له ذلك. فلا يخلو فى الإعلان أن يكون للنفس والعدو هناك فرصة ونصيب وإن دق ، والقلب ينكر ، ويكتب له ذلك .

ولكن إذا أسره لم يبق للعدو شىء ، وإنما بقيت شهوة النفس ، فإذا علمت النفس أنه لايراه أحد يئست من تلك الشهوة أن يقضيها لها صاحبها ، فخمدت ، فضوعف [3] العمل سبعين ضعفا على العلانية .

ثم إن لله عبادا[4] راضوا أنفسهم، حتى من الله عليهم بالعلم، وتراكمت على قلوبهم أنوار المعرفة ، وذهبت عنهم وساوس النفس، لأن الشهوات قد ماتت منهم ، ووقعت [5] قلوبهم فى بحار عظمة الله تعالى وجلاله وكبريائه ، فإذا عمل عملا فى علانية لايحتاج إلى أن يجاهد عنه ، لأن

---

(١) فى ز : والقلب .

(٢) فى ظ : مكره .

(٣) فى ظ : وضوعف .

(٤) فى ز : عباد ، بدون ألف .

(٥) فى ز : ووقف .

شهوة العبد [فى] الرياسة ورؤية الناس وتعظيم الخلق له قد انقطعت عنه ، وتصاغرت نفسه إليه فى ملك الله تعالى ، الذى عاينه بقلبه ، فإذا أعلن به فإنما يريد به النصيحة لله فى خلقه كى يقتدوا به ، ويهيج منهم مايريهم ، ويبعث نفوسهم على ذلك .

فهذا عبد ناصح لله فى خلقه ، فضوعف له على عمل السر سبعين ضعفا .

ألا ترى أن الله تعالى أثنى على قوم فى تنزيله ، وسماهم عباد الرحمن ، وأوجب لهم أعلى الدرجات فى الجنة ، فقال : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » (الفرقان : ٧٥) فذكر من تلك الخصال التى عدها منهم أن دعوا فقالوا : « واجعلنا للمتقين إماما » (الفرقان : ٧٤) فإنما ينالون [١] الإمامة لينصحوه فى عباده ، ويدلوهم على المسير إليه فى هذه الشريعة بالحق والعدل .

فإن الله تعالى ذكر فى تنزيله ماخص به موسى عليه السلام فى بنى إسرائيل حين [٢] قال : رب ، أجد فى الألواح قوما من صفتهم كذا ، ومن شأنهم كذا ، فقال : أولئك أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما كثر

---

(١) فى الأصلين : ينالوا .
(٢) فى ظ : حيث .

ذلك ود[1] موسى صلوات الله عليه وسلامه[2] أن يكون لأمته بعض ذلك ، فقيل له : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون » (الأعراف : ١٥٩) قال : فرضى إلى[3] الله تعالى كل الرضا .

ثم أعطيت هذه الأمة ما أعطى موسى عليه السلام فى أمته ، فقال : « وممن خلقنا أمة يهدون بالحق . وبه يعدلون » (الأعراف : ١٨١) .

فهؤلاء أئمة الهدى ، وهم أعلام الخلق ، بهم يقتدى فى المضى إلى الله تعالى .

وإنما سألوه أن يجعل لهم من نور الحق ونور العدل على قلوبهم ، ليدعوا الخلق بذينك[4] النورين فى هذه الشريعة إلى الله تعالى ، فإنهم إذا دعوا [بدون] النور[5] لم يقبل منهم ، لأن ذلك كلام لا يجاوز الأسماع ، فإذا دعوا الخلق من ذلك النور خلص[6] إلى قلوب الخلق ، فأجابوهم إلى ما دعوا إليه .

---

(١) فى ز : وجد .
(٢) ساقطة من ز .
(٣) ساقطة من ظ .
(٤) فى ظ : بذلك ، وفى ز : بذلك ذلك ، وقد وضعنا ما رأيناه أنسب
(٥) فى ظ : إذا دعوا بالنور ، وفى ز : إذا دعوا فالنور ، وقد وضعنا ما يتناسب مع المعنى والسياق .
(٦) فى ز : تخلص

وسالت

عن الهوى المردى ، وهل يضر الهوى بالعمل إذا كان
فى الخير ، وكيف يعرف الهوى من العقل ، وما فرق
بين الهوى ووسوسة[١] النفس

فاعلم أن النفس قرينة الروح فى الجسد ، وهما ريحان ، إحداهما سماوية ، والأخرى أرضية ، فالروح ريح سماوية من ريح الحياة ، والنفس ريح أرضية من ريح الحياة التى أعطيت الأرض، ولذلك سميت ذرية ، لأنها ذرة وتلك الريح التى حييت الأرض بها ، فنطقت ، فقالتا « أتينا طائعين » (فصلت : ١١) .

والشهوات موضوعة فى النفس ، وأصل الشهوات بباب النار ، حفت النار بها ، وهى زينة وأفراح ونعيم ، مخلوقة من النار ، موضوعة ببابها ، وقد وضع منها فى جوف الآدميين ، والأصل هناك ، وقد سلط على ذلك الأصل العدو .

والهوى ريح هفافة ، تخرج من النار ، فتمر بتلك الشهوات ، فترفع منها ، فتورد على نفوس الآدميين مع العدو ، فإذا جاء الهوى اهتاجت بعده الشهوات التى وضعها فى الآدميين ، بمنزلة خميرة يعجن بها الدقيق حتى يقوى ويهيج فورانها فيه .

فكذلك الهوى إذا أقبل بها ، واحتمل[٢] من باب النار إلى هذه الشهوات التى فى النفوس اهتاجت الشهوات .

---

(١) فى ز ، بدون حرف العطف
(٢) فى الأصلين بدون حرف العطف

وإنما يجيء بها العدو ، فينفخ بذلك الهوى ، وهى الريح الهفافة ، فإذا وصلت نفخة العدو بذلك الهوى لم يملك ابن آدم نفسه حتى يقع فيما أورد ، إلا أن يستغيث بالله ، ويلجأ إليه فى ذلك الوقت ، فيتداركه ربه بالعصمة ، قال الله عز وجل فى تنزيله : « إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى » (يوسف : ٥٣) . أى رحمه فعصمه ، فإذا عصمه ، قوى[1] ونهى النفس عن الهوى ، أى عن اتباع الهوى ، فإن الجنة هى المأوى[2] .

فإذا جاء الهوى بالشهوات من باب النار ليدعو النفس إلى ماجاء به فمازج بها تلك الشهوات التى فى النفس حتى قويت ، فإذا دبت تلك الحرارة فى عروقه احتاج إلى أن يجاهد نفسه ويستعين بالله .

فإن جاءت العصمة فذلك عبد من الله عليه .

وإن انقطعت العصمة وقع فيها .

وإن دعاها إلى طاعته كانت طاعته ذات علاقة ، فمتى تغير حال من أحوال تلك الطاعة مما يثقل عليه ، تركها وأعرض عنها إلى ما تهوى النفس .

---

(١) هذه الفقرة من قوله : قوى ، إلى قوله : فإذا جاء الهوى بالشهوات ساقطة من مخطوطة ظ

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى » (النازعات : ٤٠ – ٤١) .

فالهوى ضائر فى كل وقت ، وفى كل عمل ، وصاحبه ساقط عن العدل إلى الجور .

* * *

وســـألت

عن الوسوسة متى تنقطع عن العبد

فقال : إنى سأنبيك عن نظيرها ، حتى يكون جوابى فى هـــذه(١) جوابك فى تلك .

قال : متى ينقطع طمع الخلق عن معارضتهم إياك بالمكروه والأذى ؟ أليس من شأن الناس إذا لقى أحدهم قهرا وظلما وعنتا وأذى اختلف إلى أبواب السلطان ؟ واتخذ عندهم وجها ؟ فلا يزال به كثرة الاختلاف حتى يعرفه السلطان معرفة لا ينكره بعدها ، ولا يزال يبذل النفس لهم فى النصيحة ، والإشفاق على أموره ، والنصيحة لعبيده وخدمه ، حتى يعرف بالميل إليه والخصوصية ، ويصير عنده وجيها ، ينفذ قوله ، ويأتمنه السلطان على أموره ، فلا يزال كذلك حتى يقبله السلطان ويقربه ، فيلبسه السواد ، ويقلده عملا ، فإذا ولى(٢) له عملا ، ورأى الناس سواده

---

(١) فى ز : هذا .

(٢) فى ز : تولى .

عليه انقطعت أطماعهم عن أذاه وأن يعقبوه بمكروه ، فيرضون بعد ذلك منه[1] رأسا برأس .

فإذا علمت أن هذا هكذا ، فاعلم أنه إذا تاب العبد ، ثم استقام قلبه فى باب التوبة ، لايزال[2] يتقرب بأداء الفرائض واجتناب المحارم حتى يستحكم ذلك .

ثم لايزال يتقرب بعد ذلك بالوسائل حتى يصير عند الله تعالى وجيها لأنه قد أتى بما[3] أمر وزاد على ذلك ، فاؤتمن فوجد أمينا .

فتتابعت[4] الأنوار على قلبه ، حتى إذا انكشف الغطاء له عن جلال الله عز وجل وعظمته أشرق نور الجلال فى قلبه ، وبرز[5] جلال السلطان فى صدره .

فإن دنا الوسواس منه احترق ، فتى يجترىء بعد ذلك أن يوسوس إليه ؟ إلا أن يرمى من بعيد شيئاً بعد شىء ، فى وقت فترة أو غفلة ، بمنزلة الخطفة التى يخطفها من خبر السماء ، فأتبعه شهاب ثاقب[6] فأحرقه.

---

(١) فى ظ : فيرضون منه بعد ذلك

(٢) فى ز : ثم لايزال

(٣) فى ظ : أتى ما أمر

(٤) فى ز : فتتابعت

(٥) فى ظ : وبرد

(٦) إشارة إلى قوله تعالى : «إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا

كذلك إذا خطف من الصدر لحقه شهاب ثاقب من نور السلطان فأحرقه .

ومما يحقق ذلك ما روى عن سديسة مولاة حفصة(١) قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما لقى الشيطان عمر إلا خر لوجهه ، لأن رجليه ذهبت القوة منهما(٢) فخر لوجهه .

وكذلك تجد فى هذه الدنيا لو استقبلك أمير المؤمنين لأخذك من

من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ، دحورا ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفه فأتبعه شهاب ثاقب » (الصافات : ٦ - ١٠) .

(١) السيدة أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ثلاث ، وقيل سنة اثنتين ، أما مولاتها سديسة الأنصارية فهى تعد فى أهل المدينة ، راجع عنها الإصابة فى معرفة الصحابة وكذلك الاستيعاب فى معرفة الأصحاب بتحقيق على محمد البجاوى ج ٤ ص ١٨٦٠ رقم ٣٣٧٤ .

(٢) فى ز : منها ؛ قال السيوطى فى الجامع الصغير إن ابن عساكر روى عن حفصة قول الرسول صلى الله عليه وسلم : ما لقى الشيطان عمر منذ أسلم إلا خر لوجهه ، وأشار إلى ضعفه ج ٢ ص ١٢٧ ، وقد روى البخارى عن محمد بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه قال : استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نسوة .. إلى قوله : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إيها يا ابن الخطاب ، والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط إلا سلك فجا غير فجك . كتاب فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، باب مناقب عمر ابن الخطاب رضى الله عنه .

هول سلطانه ما يذهب لسانك ، ويذهب رجلاك ، فتسقط إذا كنت متهما عنده .

والعباد محتاجون فى انقطاع الوسوسة إلى الخوف ، لا خوف العقاب ، ولكن خوف العظمة حتى تذهل النفس وتنقطع وسوستها ، ويفر العدو .

فإنهما وسواسان : وسواس من النفس ، (وسواس من) العدو .

فالعدو يفر بذكر الله ، والنفس لا تفر ، بل تتردد فى الصدر ، فهذا أصعب .

وروى عن عطاء[1] عن ابن عباس[2] رضى الله عنهما فى قوله عز وجل : « الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس » ، (الناس ٥ - ٦) قال : هما وسواسان ، أحدهما من العدو ، والآخر من النفس ، قوله « من الجنة » أى من الشيطان الذى قد اجتن[3] عن الخلق ، وقوله « والناس » أى من نفوس الناس .

---

(١) هو عطاء بن رباح أسلم أبو محمد المكى ، قال ابن سعد : انتهت إليه فتوى أهل مكة . وكان ثقة فقيها عالما كثير الحديث ، أدرك مائتين من الصحابة وكان ابن عباس يقول : تجتمعون إلى يا أهل مكة وعندكم عطاء ، وكذلك روى عن ابن عمر .

(٢) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعاله النبي صلى الله عليه وسلم بالحكمة مرتين ، وقال ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس .

(٣) اجتن : استتر .

ولقد سألني يوما بعض المريدين ، وشكا إلى ذهاب القلب في الصلاة فقلت له : قلبك بضعة من لحم في جوفك ، أين يذهب حتى تقول يذهب قلبي ؟ .

فتحير ، فقال : كيف هذا ؟

قال قلت : القلب بمكانه ، والعقل يذهب عن القلب ، فإذا غاب العقل عن القلب صرت ساهيا لاهيا .

قال : فأين يذهب العقل ؟

قلت : إلى وطنه .

قال : فأين وطنه ؟

قلت : الدماغ ، وإشراقه في الصدر بين عيني الفؤاد ، فإذا أشرق بين عيني الفؤاد جاءت خواطر من قبل الملكوت ، بلوى[1] من الله ، ثم صارت الخواطر فكرا ، ثم صار الفكر سيراً إلى الله عز وجل ، إلى حيث أمكنه في العلا ، على قدر قوة نوره ، ومن له مقام معلوم إلى مقامه .

فإذا جاءت النفس بأشغال شهواتها ولذاتها ، فأوردت خواطرها في الصدر بين عيني الفؤاد ، لم[2] يكن هناك نور يشرق ، وأحاط[3] بالقلب

---

(١) بلوى : بمعنى ابتلاء وامتحان

(٢) في الأصلين : ولم ، وقد حذفت الواو مراعاة للسياق

(٣) في ز : أحاط ، بدون حرف العطف .

فى ذلك الصدر مثل الدخان والغيم ، فبقى الفؤاد فى ظلمة ، فهناك وسواس النفس ، و (وسواس) العدو ، يتردد بعضها على إثر بعض .

فإذا جاهدت فى ذات الله ، وتفرغت من أشغال الدنيا ، سكنت ولم تنقطع ، وكان صدرك ذلك فى تلك الأشغال بمنزلة حرج[1] أو غيضة[2] ، فيها أشجار الحطب والبردى والقصب والحلفا والطرفا ومن كل نوع ، فما ذا يتهيأ لك أن تبصر إلا موضع قدمك ، فإذا أقبلت على حصد ذلك فحصدته أو حرقته حتى صارت مفازة جرداء ، فرأيت هناك أثر مخاليب أسد ، وقع عليك من الخوف ما يملأ صدرك . ولو كان من قبل أن يصير مفازة لم يظهر عندك أثره[3] ، فلم تجد من الخوف شيئاً .

فكذلك الصدر ، إذا تفرغ من الأشغال جاءت الأنوار ، فطالعت بقلبك آثار الملكوت ، وآثار الجنة والنار ، فعندها تجد من الخوف ما يذهلك عن الاستماع إليه وإلى محادثته بذلك .

ثم قلت له : ما تقول فى رجل مر بك وفى يده معزفة أو مزمار ، وأنت فى المسجد ، فوثبت فأخذت رداءه ، ثم عدت إلى مجلسك فوضعته تحتك وقعدت عليه ، وكان سبيلك أن تثب إليه فتأخذ مزماره فتكسره

---

(١) الحرج : جمع الحرجة ، وهى غيضة الشجر الملتفة ، لايقدر أحد أن ينفذ فيها .

(٢) الغيضة : موضع يكثر فيه الشجر ويلتف .

(٣) فى ز : أثر .

وتغير المنكر ، فأخذت رداءه للرغبة التى فيك ، ولهوت عن مزماره ، وقلت مبالاتك به ، فتبعك فقام على رأسك بمزماره ، فأخذ يزمر ، فتعاظم ذلك عندك ، فأقبلت بالنكير عليه ، وقلت : تزمر فى بيت الله على رأسى !!؟ فقال لك : إنك أخذت ردائى ، وزاحمتنى فيه ، فإنما دخلت عليك لحال الرداء ، ولولا ذلك لم أدخل عليك ، ولم أجترىء عليك ، فلما أبيت أن ترد على ، غمنى ذلك وأحزننى. فأنا أزمر بأصوات الإفراط لأتسلى بذلك من الغم الذى أجده لمكان ردائى ، فإن أردت أن أكف عن ذلك وأخرج عنك ، فرد على ردائى ، وإلا فهذا دأبى معك . فأيهما أرجح ؟؟ ولو تحا كما فى ذلك المسجد ، كيف تحكم بينهما ؟؟ أليس تقول له رد عليه رداءه حتى يخرج من عندك ؟؟

واعلم الآن(١) أن الله تعالى جعل الصدر ساحة قلبك وجعل المعرفة فى قلبك ، وأفراح المعرفة وسلطانها فى صدرك ، وقال : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » (يونس : ٥٨) ، وجئت بأفراح زينة الدنيا ، التى هى حظ العدو من ربه ، فمكنتها فى صدرك ، وأذقت طعم حلاوتها قلبك ، حتى تكدر عليك حلاوة الإيمان ، وذهبت نزاهته وطيبه .

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الإيمان حلو نزه فنزهوه .

---

(١) ساقطة من ز .

وقال الله فى تنزيله لعدوه : « واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد » (الإسراء : ٦٤) ، أى أعطيتك سلطان هذه الأشياء ، حتى أنظر من يجاهدك ويلجأ إلى فى مجاهدتك ، ويستغيث بى ، ومن يلقى بيديه إليك سلما ، فيكون أسيرا من أسرائك ، قد آثرك على .

وقال فيما يحكى عن العدو أنه قال : « لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين » (الحجر : ٣٩ - ٤٠) ، فإنما وعيده لهم فى تلك الزينة بالسلطان الذى أعطى ، وهى تلك الأفراح والشهوات المحفوف بها النار ، فحلاوة الإيمان ونزاهتها إنما تذهب بها حلاوة الأفراح التى جاء بها العدو ، بمنزلة الماء العذب الصافى ، الذى هو كهيئة الطل من الصفاء إذا مازجه ماء كدر وحمأة ونتن ، ماذا يبقى من عذوبته وماذا يبقى من صفائه ؟ !!

وإنما حذر الله عباده والرسل من بعد ذلك وأمناء الرسل حب الدنيا والتدرع فى الشهوات مخافة هذا الفساد .

وأى فساد أعظم من فساد قلب تذهب حلاوة إيمانه ونزاهته وطيبه وشعاعه !! ؟

فإذا ران على القلب رين الذنوب ، ورين أخلاق السوء التى سببها حب الدنيا وحب العلو ، وصار الكبر أمير النفس ، والنفس أميرا(١) على القلب ، فأى صلاح يرجى بعد هذا !! ؟

---

(١) فى الأصلين : أمير ، بدون الألف

بمنزلة كورة[1] عامرة طيبة نزهة ساكنة بعدل أمير عليها ، وإشراق بحسن تدبيره ومراعاته ، إذا دخل عليها خارجي فاسد أحمق جبار عاتى ، فغلب على الكورة ، وحشر الأمير فى بيت ، فأى صلاح يرجى بعد ذلك لتلك الكورة ! ؟

فكذلك هذا القلب ، هو أمير قد عمر صدره وجوارحه بعدله وقسطه وعمله ونزاهته ، فإذا ولج عليها حب الدنيا جاءت النفس فغلبت بشهواتها وولوعها بالدنيا على القلب بما فيها ، وكانت الإمرة لها ، فماذا تنفع الغلبة[2] بعد ذلك بمعرفة الله وبعقله وبعمله الذى أعطى ، إنما يبقى ذلك كله على اللسان منه حجة الله عليه .

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العلم علمان : علم فى القلب ، فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان ، فذاك حجة الله على ابن آدم[3] .

فإنما[4] صار على اللسان ، لأن الذى فى القلب قد حجبه حب الدنيا

---

(١) الكورة : الصقع ، والبقعة التى يجتمع فيها قرى ومحال .

(٢) فى ظ : القلب .

(٣) ذكر السيوطى فى الجامع الصغير أن ابن أبي شيبة والحكيم الترمذى قد رويا هذا الحديث مرسلا عن الحسن ، وأن الخطيب رواه عن الحسن عن جابر ، وأشار السيوطى إلى أنه حديث حسن . ج ٢ ص ٥٨ كما رواه الدارمى فى المقدمة ، الباب ٣٤، ذكر ذلك فى المعجم المفهرس ج ٤ ص ٣٣٠

(٤) فى ظ : وإنما

وشهواتها ، وذهب إشراقه ونوره ، وهو[١] منكمن بمنزلة الشمس المنكسفة ، فالشمس مكانها ، ولكن ذهب ضوؤها وإشراقها وحرها ومنافعها بكسوفها ، فإذا دامت[٢] على ذلك ذهبت زروع أهل الأرض ومعاشهم وماتوا .

فكذلك الإيمان فى قلب الآدمى ، إنما ينكسف ويذهب إشراقه من صدره بتلك الغيوم التى هاجت من النفس ، وبالذنوب التى ظهرت من معدن السوء على الجوارح ، فذهبت[٣] ثمار الجوارح ، وبرد القلب عن الآخرة ، كما برد التنور من وقوده وذهب سجره[٤] ، فإذا ألزقت به عجينك لم يلتزق ، ولم ينخبز ، وسقط فى الرماد .

فكذلك هذا الذى برد قلبه عن الآخرة ، لانكساف شمس المعرفة ولو[٥] وعظته بحكمة لقمان وسائر الحكماء لتساقط ولم يلتزق بقلبه منه[٦] شيء ، لأن صدره مشحون بحب الدنيا وأفراحها ولذاتها[٧] ، وتلك لها دخان وفورة تثور[٨] من معدنها ، من الجوف الى الصدر .

---

(١) فى ز : وهى .

(٢) فى ز : دام .

(٣) فى الأصلين : فذهب .

(٤) سجر التنور سجرا بضم السين وسجوراً أوقده وأحماه .

(٥) فى ز : لو ، بدون حرف العطف .

(٦) ساقطة فى ظ .

(٧) ساقطة فى ظ .

(٨) فى ظ : بنور .

كما ترى الأتون[1] التي يطبخ فيها الخزف ، فكلما ألقى فيها من الحشيش التهب[2] وخرجت من كونها مثل ذلك الدخان ، فسطع[3] فى الجو ، فترى إشراق الشمس[4] كيف ينطمس وتتغير على الحيطان .

فإذا التهب الجوف بحر تلك الأفراح التى نالها ، سطع دخانها مثل الغيم ، فركد فى الصدر بين عينى الفؤاد ، فذهبت بصائر الإيمان وذهب ضوء نعم الله وإحسانه وتدبيره فيك .

فاذا صرت إلى صلاتك ، (و) قمت بين يدى الله تعالى ، جاءك العدو يحادثك[5] بتلك الأشياء التى قد تمكن حبها فى نفسك وصدرك .

فإن خاصمته وطردته وأردت نفيه عن صدرك ، قال لك : إن الله تعالى أعطاك أيها المؤمن فرح الإيمان وزينته ، وقال لك فى تنزيله : « ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم » (الحجرات : ٧) ،

---

(١) الأتون ، بفتح الهمزة وضم التاء ، وتشدد : الموقد الكبير ، كموقد الحمام والتنور : بفتح التاء ، وضم النون وتشديدها : الفرن الذى يخبز فيه .

(٢) فى ز : والتهب ، وفى ظ : التهبت

(٣) فى ز : فسطح

(٤) فى ظ : شمس ، بدون أل

(٥) فى ظ : فحادثك

وندبك إلى الفرح بما فضلك به على غيرك ، فقال : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » (يونس : ٥٨) ، فما حملك على أن أعرضت عن زينة الله ورحمته ، والفرح بهما ، وأقبلت على زينتى وأفراحى المشوبة بنجاسات الشرك والكفر ، وقد قال لك ربك : « هو خير مما يجمعون » فلم توقن بما قال لك ربك ، فلما فعلت ذلك وزاحمتنى فيما أعطيت ، فأنا دخيل صدرك ،ومزاحمك فى نجواك وأفعال صلاتك ، مسلط عليك عقوبة لك بما آثرتنى ، فآثرت(١) شيئا أعطيته على ما أعطيت ، فلا أزال أزمر بأفراحى على أذنك ، وأطربك حتى ألهيك عن ذكر الله .

ففهم الرجل عنى ما مثلت له ، فوجد من ذلك وجدا شديدا وأخذ يبكى .

ثم قال لى : فما الحيلة ؟ فقد صارت معاينة من أين أوتينا .

فضربت له مثلا آخر ، فقلت له : ما تقول لو أن دارا فيها عزف وقصف(٢) ، وألوان الأغانى والسرور ، فبيناهم فى فرح ذلك السرور والطرب إذ دخل داخل فقال : جاء الأمير . أليس تخمد تلك الأصوات ، ويذهل أولئك القوم عن جميع ما هم فيه ، لهول مجيئه وهيبته(٣) ؟؟

---

(١) فى ز : وآثرت .

(٢) فى ز : غرف وقصر ، وفى ظ : غرف وقصور .

(٣) فى ز : ولهيبته .

قال : نعم !

قلت : فكذلك هذا الصدر الذى فيه ألوان السرور بما يتعاطى من أحوال الدنيا ، ويتقلب فيه من درك المنى ، فيفرح القلب به،وينتشر[1] فى الصدر دخانه ، وتشرد فيه نفسه ، فتلك الأحاديث كائنة فيه ، فإذا ولج القلب باب الملكوت فعاين من عظمة الله وجلاله وكبريائه ذهلت نفسه عن كل شهوة ، وذبلت ، وانخشع القلب حتى يصير كالشىء الملقى وقيذا[2] من أثقال العظمة والجلال ، وسكنت أصوات طرب النفس وأحاديثها ووساوسها [3] .

فقد بان لك أن العباد محتاجون فى صلاتهم ، وفى جميع أحوالهم ، إلى خوف الله ، المذهل لهم عن كل فرح :

فأبناء الدنيا أصوات فرح النعيم فى صدورهم ، ومنها يحدثهم العدو .

وأبناء الآخرة أصوات فرح العز بالعبادة والتقوى فى صدورهم ، ومن تلك الأفراح يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، ويذكروا فى الدنيا بالثناء الحسن .

فهذه صدور خربة ، والشياطين تأوى إلى الخرابات .

فإذا عمر القلب والصدر ، فإنما يعمر بخوف عظمة الله ، وجولانه

---

(١) فى ظ : وينشر .

(٢) الوقيذ : الذى يغشى عليه لايدرى أميت هو أم حى .

(٣) فى ز : ووساويسها .

فى الملكوت ، فعندها يقطع الوسواس ، فإذا ناجوا ربهم فى صلاتهم كان حديثهم معه ، فكأنما يخاطبهم ويخاطبونه(١) ، فإن أقبل الله عليهم فى صلاتهم فانتبهوا لإقباله عليهم ، ثم(٢) أقبل على إقبالهم ، فمن يقدر أن يصف ما يجرى هناك ؟؟ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جعل قرة عينى فى الصلاة(٣) ، فلم يقل بالصلاة ، ولكن : فى الصلاة .

٭ ٭ ٭

وســـألت

مسألة أخرى عن كثرة الوسوسة فى قلب العبد

---

(١) فى ز : ويخاطبوه .

(٢) فى ز : بما أقبل .

(٣) فى ز : إن الله جعل قرة عينى فى الصلاة .

قال فى كشف الخفاء ج ١ ص ٤٠٥ ، اشتهر على الألسنة بلفظ : حبب إلى من دنياكم ثلاث : النساء ، والطيب . وجعلت قرة عينى فى الصلاة . قال ورواه النسائى عن أنس بهذا اللفظ ، والحاكم بدون جعلت ، وقال صحيح على شرط مسلم ، وأخرجه ابن عدى عن أنس بلفظ : حبب إلى من الدنيا : النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة ، وأخرجه أيضا وأبو يعلى فى مسنديهما ، وأبو عوانة فى مستخرجه ، والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى سننه وآخرون .

وكيف(١) الخلاص منه ، وهل يضيره(٢) ذلك إذا لم يقبل

غرضـــه

فاعلم أن الوسواس على ضربين :

إحداهما من العدو ، فإذا جاء العدو فوسوس نفاه بذكر الله تعالى ، فأخنس ، ولذلك يسمى خناسا(٣) .

والوسوسة الأخرى أقوى وأصعب ، وتلك وسوسة النفس .

وهما مذكوران فى التنزيل بقوله : « من الجنة والناس » (الناس : ٦) فالذى(٤) من الجنة هو العدو ، والذى من الناس هو من النفس . وإنما سمى جنة لأن إبليس كان من جنة الملائكة ، من صنف يقال لهم الجن ، وكان رئيسهم ، وأما الجن الذين هم فى الأرض ، فهم من الجان الذى خلق من نار السموم ، وليسوا من الملائكة ، وإبليس خلق من نار العزة ، والملائكة خلقوا من نور العزة .

وإنما سمى الناس(٥) ناسا ، وواحده إنسان ، لأن الأنسة فيهم وهو الذى يأنس بعضهم ببعض . فإذا افتقدوا ذلك توحشوا .

---

(١) فى ظ : كيف ، بدون حرف العطف .

(٢) فى ظ : يصره .

(٣) أخنسه : خلفه ومضى عنه ، ومنه اختنس وانخنس ، والخناس : الشيطان .

(٤) فى ظ : والذى .

(٥) فى ز : النفس ، بدلا من الناس .

فإذا وسوست النفس فإنما توسوس من شهواتها ولذاتها، فلذلك صار أمرها أقوى وأصعب ، فنفيها بذكر الموت ، لأن ذكر الموت إذا دام على النفس أمات الشهوات فيها ، وزهدها فى عينها ، وحقرها وصغرها ، لذكر زوالها ، وانقلاب حالها .

ولذلك حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذكر ذلك فقال : اذكروا هادم اللذات ، فما ذكر عند كثير إلا قلله ، وما ذكر عند قليل إلا كثره[1] .

معناه : إذ الموت معاينة ، وذكره يذهل النفس ، فيصير القليل من الشيء عنده كثيرا ، يقول : أموت الليلة ، أموت غدا[2] ، فهذا كثير لمن يموت ، ويصير الكثير عنده قليلا[3] ، يقول: أموت غدا ، فما أصنع بهذا والموت يطلبنى ، وهذا لمن قصر أمله .

---

(١) سبق ذكر هذا الحديث والتعليق عليه ، وقد رواه أحمد فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ ، قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : أكثروا ذكر هاذم اللذات ، رقم ٧٩١٣ ، قال فى كشف الخفاء : إن لفظه عند العسكرى : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس من مجالس الأنصار وهم يمرحون ويضحكون ، فقال : أكثروا ذكر هاذم اللذات ، فإنه لم يذكر فى كثير إلا قلله ، ولا فى قليل إلا كثره ، ولا فى ضيق إلا وسعه ، ولا فى سعة إلا ضيقها . ج ١ ص ١٨٨ ، وله روايات أخرى .

(٢) فى ز : أموت غدا ، وبين اللفظين تصحيح على الهامش بوضع لفظ : الليـــلة .

(٣) هذه الجملة ابتداء من قوله : فهذا كثير ، ساقطة فى ز .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الزهد في الدنيا قصر الأمل.

فلا يزال العبد ينفي هاتين الوسوستين بهذين الذكرين ، حتى يستولي على القلب هذا الذكر ، ويستنير الصدر، ويأتيه المزيد من الله من الخوف. فإذا جاء الخوف ولزم القلب ، صار القلب خاليا من الوسوسة ، لأن سلطان المعرفة قد ظهر على القلب ، وقعد القلب أميرا[١] ، فصار الصدر في الخلوة والسكون كدار أمير المؤمنين في الدنيا ، لا يكاد يسمع فيها حس ولا مس، ولا وقع قدم ولا همس . قد أخذتهم هيبة شهود أمير المؤمنين، وقربه[٢] منهم ، فكلامهم فيما بينهم همس ، ومشيهم ركز[٣] .

وهذه الأصوات والجلبة قبل ذلك كانت من النفس ، وتؤدى إلى الصدر ، فلما جاء سلطان المعرفة بالخشية والخوف والفرق والأهوال ، أهوال العظمة ، ماتت النفس في مكانها ، وخمدت أصواتها وجلبتها .

أما الذي ذكرت من قول الحسن ، حيث شكا إليه رجل الوسوسة ، فقال : زادنا الله منه ، فإن تلك وسوسة الإيمان ، وذلك لأنه كان الإيمان في قلوب العباد غيبا ، لا يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل ، وكان النفاق كائنا في الإيمان ، من حيث لا يعلمه العباد ، وطمع العدو في الجميع ، فرماهم بما أعطى ، فلما حصلت الرمية في الصدر بين عيني الفؤاد ، طارت من

---

(١) في ظ : أسيرا .

(٢) في ز : وقربهم .

(٣) الركز : الصوت الخفي . قال تعالى : « هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا » . (آخر سورة مريم) .

جمرة الإيمان التى فى قلبه شرارة ، فأحرقته[1] الرمية ، وولى العدو هاربا، فانخنس فى مكانه ، وصار لتلك الشرارة فى الصدر ضوء وشهاب ثاقب ، فذلك ضوء الإيمان، فهو فى تلك الساعة أحسن وأرفع منزلة ، لأن الإيمان كان منه فى غشاء ، فبرز ضوؤه وشهابه فأشرق ، فذلك فعل القلب[2] وكسبه ، فلا يستوى كسب الأمير وكسب الخدم ، وهى الجوارح .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث شكى إليه ذلك ، فقال : ذلك محض الإيمان[3] .

فإنما سماه محضا ، لأن الغشاء الذى على الإيمان قد انقشع ، والغطاء قد انكشف ، وذلك أن الغطاء على الإيمان كان من الله رحمة ، والغشاء حديث فى العبد فى إيمانه ، وهو العلائق والشهوات . فانقشع الغشاء ،

---

(١) فى الأصلين : فأحرقه .

(٢) فى ظ : العبد .

(٣) أخرجه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فسألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ، قال : وقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذاك صريح الإيمان .

وعن علقمة عن عبد الله قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة، قال : تلك محض الإيمان .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هذا ، خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك فليقل : آمنت بالله .

وانكشف الغطاء ، واستنار الإيمان فى الصدر ، فأضاء وأشرق[1] ، فذلك محض الإيمان ، وإنما وقع قوله عليه السلام على تلك الشرارة التى ظهرت من الجمرة ، لاعلى ماجاء به العدو من الخبث والخبائث .

وإنما مثل قلب الآدمى بمنزلة هذا الزند الذى يقدح ، فرب حجر يورى نارا ، ورب حجر لايورى نارا ، فأنت تقدحه[2] بالقداحة حجرا حجرا فكلما ورى عزلته ناحية ، وجعلته من بالك وموضع حاجتك ، ومالم يور رميت به .

فكذلك العدو يرمى بقداحته ، فإذا قرع بها قلبك فكان فى قلبك نور المعرفة ظهر من شرر ذلك النور فى صدرك ، فاتخذه العدو من باله وموضع حاجته ، فلا يزال يعذبك بالوسوسة طمعا أن يختلس منك شيئا ، فإن لم يقدر على العقدة ، أعنى عقدة الإيمان ، لأنها محروسة ، فمن أعمال العقيدة الجارية على الجوارح ، يفسدها عليك .

فإذا رمى ، فوافت رميته قلبا خاليا من الإيمان . وهو منافق ، والإيمان منه على اللسان وأعمال الجوارح ، فإذا قرعت الرمية ذلك القلب

---

(١) ساقطة فى ز .

(٢) زند النار زندا : قدحها ، والزند : العود الأعلى الذى تقدح به النار ، والأسفل هو الزندة ، وقدح بالزند : ضرب به حجره لتخرج النار منه ، وقدح الزند : ضرب به بحجره ليخرج النار منه ، وورى الزند : خرجت ناره ، وورت النار : اتقدت .

(و) لم يور نارا ولا شرارة ، علم أنه قلب خال ، ليس فيه شيء ، وعلم أنه له ، وليس لله تعالى فيه حاجة ، ووجد أمراً مفروغا منه ، فرمى به إلى حيزه ، ورفع باله عنه ، ولم يشتغل به ، لأنه له ، ولأنه إنما يوسوس ليفسد الذى[1] فيه ، فإذا لم يكن فيه شيء يحتاج إلى إفساده احتسبه لنفسه وتركه .

وإنما اشتغاله بمن رماه فأورت الرمية منه نار الإيمان من باطن قلبه، فعندها صار من باله[2] ، وتشمر وتفرغ لإفساده حسداً منه .

وهذا تأويل الحديث الذى جاء أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا افتقدوا الوسوسة عدوه نقصانا[3] .

وقال إبراهيم النخعى : آية قبول صلاة المؤمن الوسوسة[4] ، وذلك أن أهل الكتاب لا يوسوسون. وذلك أن العدو قد فرغ من أمورهم[5]، وقد صاروا له ، (و) قلوب أهل الكتاب وأهل الشرك كالبيوت الخربة وبيوت الفقراء ليس يعبأ بها اللصوص ، وإنما تقصد اللصوص لبيوت الأغنياء .

---

(١) فى ز : الدين .

(٢) فى ظ : ماله .

(٣) فى ظ : نقضا .

(٤) بمعنى أن ظهور الوسوسة ومحاولة المصلى دفعها ومقاومتها علامة على اهتمام العدو بإفساد صلاته حتى لا تكون محلا للقبول، فدفع الوسوسة ومقاومتها يكون عاملا على قبولها : وسوف نزيد هو هذه المسألة أيضاحا .

(٥) فى ظ : أمرهم .

فهذه القلوب ثلاثة : قلب خرب ليس يعبأ به العدو ، وقلب فيه خير كثير ، كبيت فيه غنى ومتاع كثير ، فللصوص فيه طمع[١] ، فلا[٢] اللص ينقطع عمله، ولا صاحب البيت يغفل عن حراسته، وإن غفل أتلف متاعه. وبيت أمير المؤمنين فيه جواهر، قد انقطعت أطماع اللصوص أن يصلوا إليه ، لأنه حصن حصين ، وحراسه كثير ، وعقوبه أمير المؤمنين عظيمة ، إنما هو قتل أو صلب .

فالأول : قلب الكافر والمنافق .

والثانى : قلب عمال الله من الموحدين .

والثالث : قلب ولى الله وخاصته ، هو فى قبضته، وهو يستعمله[٣]، قد انقطعت أطماع العدو من الاشتغال بوساوسهم .

ألم تر إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالقى الشيطان عمر إلا خر لوجهه[٤] ، من السلطان الذى فى قلبه .

وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : من هاب الله أهاب الله منه كل شىء .

وكذلك قيل : كانت درة عمر رضى الله عنه أهيب فى صدور الناس من سيوف الخلق .

---

(١) فى ز : مطمع .

(٢) فى ظ : ولا .

(٣) فى ز : مستعمله .

(٤) سبق هذا الحديث ، وسبق التعليق عليه .

ولذلك قال سعد بن معاذ[١] رضى الله عنه : ما قمت فى صلاة فألهانى عنها شىء سواها .

فانقطاع الوسوسة فى الصلاة لقلوب قد امتلأت من عظمه الله . فأشرق نور العظمة فى صدورهم ، فهو يسبح فى بحار العظمة ، فمتى يقدر العدو أن يحدثه بأحاديث الدنيا ؟ ؟ أو متى يلتفت ذلك القلب إلى شىء وهو فى ذلك البحر هائم باهت[٢] ؟ ؟

ولنا باب فى « كتاب الأصول » فى نحو من مجلد[٣] ، قد فسرنا [فيه] منازل الصلاة ، والرد على من أنكر انقطاع الوسوسة ، وزعم أن هذا لا يكون لأحد دون النبى صلى الله عليه وسلم ، اقتباسا من نفسه وتقديرا من عند معرفته بنفسه ، ولا يعلم أن لله عبادا اختصهم لنفسه ، وأحلهم ذروة جبل الإيمان ، وفتح لهم باب النجوى ، وجعلهم جلساءه وهو يروى الحديث أنه قال لموسى صلوات الله عليه وسلامه : أنا جليس

---

(١) سعد بن معاذ : الخزرجى الأنصارى . شهد بدرا وأحدا والخندق ورمى فيه بسهم ، فعاش بعد ذلك شهرا ، ثم انتقض جرحه فمات منه سنه خمس من الهجرة ، وهو الذى حكمه بنو قريظة حين حاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، فحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ، وتقسم أموالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله، وعندما مات قال المنافقون : ما أخف جنازته !! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن الملائكة حملته ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه من وجوه كثيرة : اهتزا لعرش ، أو اهتز عرش الرحمن ، لموت سعد ابن معاذ ، رضى الله عنه .

(٢) بهته الشىء بهتا : أدهشه وحيره .

(٣) فى ز : جلد .

من ذكرني ، ولا يعرف ما الجليس ، ولو عرف ما أنكر انقطاع الوسوسة ، أولئك جلساء الله وذاكروه ، وقرة عين الرسل عليهم السلام ، وأهل بيت محمد صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ، بهم تقوم الأرض ، وتمطر السماء ، وهم أربعون رجلا ، كلما مات منهم رجل هيأ الله لمكانه من يقوم مقامه .

* * *

فأما ما سألت

ما ضرر الوسوسة فى الصلاة

مثل ذلك مثل رجل رفعت إلى الأمير مساوئه ، وشكى ، إذ بدت له حاجة إلى الأمير ، فمشى إليه معتذرا مما وقع إليه ، وطالبا لتلك الحاجة فلما بلغ باب الأمير أرسل[1] إليه خدمه وعبيده ، ومال إلى شهوة من شهواته .

فإن قام هؤلاء الخدم بين يدى الأمير ، فاعتذروا إليه عن سيدهم ، ورفعوا إليه حوائجه ، قال الأمير : فأين صاحبكم ؟؟ قالوا : قد كان بالباب ، ولكن عرضت[2] له شهوة ولذة ، فاشتغل بها عن المصير إليك

(١) فى ظ : الرسل ، بدلا من أرسل .
(٢) فى ز : اعترضت .

أليس هذا ساقطا[1] عند الأمير ! ! ؟ ويوضع ذلك من أمره على الاستخفاف والاستهانة بما رفع إليه ! !

فكذلك المصلى ، إنما هيئت له هذه الصلاة للتوبة والاعتذار والملق والرغبة ، والتنصل مما فعل ، فإذا فعل ذلك بالجوارح وغاب القلب عن ذلك الفعل ، كان بمنزلة ما ذكرنا من شأن هؤلاء الخدم الذين وقفوا بين يدى الأمير ، وغاب عنهم رئيسهم .

فقد أجملنا جوابنا فى هذه المسئلة لعامة مسائلك[2] فى هذا الباب .

* * *

وســـــألت

ما سبب الحساب على العباد ؟ فإنه يحاسب على اليسير من الدنيا ، ويعطى فى الآخرة الكثير بغير حساب

فاعلم أن العبد خلق للعبودة ، فكل حركاته وسعيه وتناوله من الدنيا محفوظ عليه ، مكتوب عليه ، مسئول عنه ، من أجل من تحرك ، ومن أجل من سعى ، ومن أجل[3] من تناول .

---

(١) فى الأصول : ساقط .

(٢) فى ز : مسائل .

(٣) فى ظ : ولأجل .

فما حرم عليه منها لم يكن له فيه حجة ، والعقوبة واجبة ، إلا أن يعفو .

وما أحل له منها :

فإن كانت له نية فى كل أمر . فقد أتى بالعبودة ، ووجب الثواب .

فإن غفل عن النية . وكان ذلك منه بشهوة نفسه وهواه ، لم يأت بالعبودة ، ولم يجب له ثواب ، وتعطل من أيامه وعمره ، التى هى حجة عليه ، بقدر ما غفل ، وكان ذلك حسرة عليه يوم القيامة ، حيث يرى أفعالا قد أبيح له فعلها ، ولم يرد بها الله ، ولا ابتغاء وجهه ، ولا طلب مرضاته ، وإنما أراد قضاء شهوته ، وإيثار نهمته ، وذلك الذى خرب قلبه وصدره ، حتى صار محجوبا عن الله عز وجل ، وعن تدبيره ، وعن دار آخرته ، فوقع من أجل ذلك فى التخليط ، وقل حياؤه وخوفه من الله[١] ، وغلب الجهل بالله على قلبه ، وقل علمه بالله ، وعين الله عليه ، وإحسانه عليه ، فوقع عليه الحساب يوم القيامة فى كل سعى وحركة [و] تناول من الدنيا ، ماذا أردت بها ؟ لأنه تناول نعمة الله وغفل عن الشكر وضيع العبادة ، وقال فى تنزيله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (الذاريات : ٥٦) .

وإنما صارت جميع الحركات المثبتة للذى[٢] خرج من الغفلة عبادة بدوام ذكر الله فى كل سعى وحركة .

(١) فى ز : وقل خوفه وحياؤه من الله .

(٢) فى الأصلين : الذى .

ولذلك قال رسول صلى الله عليه وسلم : أشد الأعمال ثلاثة : ذكر الله على كل حال ، والإنصاف من نفسك ، ومواساة الإخوان فى مالك(١) .

* * *

وأما ماذكرت

أنك رأيت المجتهدين فى أعمال البر لم يبلغوا ورأيت من لم يجتهد ذلك الجهد وقد بلغ

فذاك لصحة(٢) باطنه بلغ ، والمجتهد لفساد باطنه لم يبلغ .

ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن بدلاء أمتى لم يبلغوا ولم يدخلوا الجنة بكثرة صوم ولا صلاة ، إنما دخلوها(٣) برحمة الله ، وسلامة الصدور ، وسخاوة الأنفس ، والنصيحة لله تعالى ، والرحمة لجميع المسلمين ، وبتقوى الله عز وجل(٤).

(١) روى البخارى فى كتاب الإيمان ، باب : إفشاء السلام من الإسلام : وقال عمار : ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان : الإنصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والإنفاق من الإقتار .

(٢) فى الأصلين : لفتحه .

(٣) فى ظ : دخلوا .

(٤) ذكر العجلونى فى كشف الخفاء ج ١ ص ٢٤ وما بعدها : الأبدال فى هذه الأمة ثلاثون مثل إبراهيم خليل الرحمن ، كلما مات رجل أبدل الله

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : تجد الناس

مكانه رجلا » وقال : إنه قد حكى عبد الله بن أحمد عن أبيه أنه منكر ، تفرد به الحسن بن ذكوان ، قال ابن كثير : وهو كما قال ، ووثق البخارى الحسن المذكور ، وضعفه الأكثرون حتى قال أحمد : أحاديثه أباطيل ، قال فى اللآلى : ولا يخفى ما فيه من التحامل ، فإن رجال الحديث مختلف فيهم ، فهو حسن على رأى جماعة من الأئمة ، وقال الزركشى أيضا . هو حسن ، وقال فى التمييز تبعا للأصل : له طرق عن أنس مرفوعا بألفاظ مختلفة وكلها ضعيفة . انتهى .

قال صاحب كشف الخفاء : لكنه يتقوى بتعدد طرقه الكثيرة، ثم ذكر له عدة طرق بعدة ألفاظ ليس فيها : وبتقوى الله عز وجل .

وقد وضع السيوطى رسالة صغيرة سماها : الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال .

وروى فى ذلك مرفوعا وموقوفا . من حديث عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، وأنس ، وعبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وعوف بن مالك ، ومعاذ بن جبل ، وأبى سعيد الخدرى ، وأبى هريرة ، وأم سلمة .

ومن مرسل الحسن وعطاء وبكر بن خنيس .

ومن آثار التابعين ومن بعدهم .

من ذلك ما رواه عن على بن أبى طالب يقول : لاتسبوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال وسبوا ظلمتهم ، وقال : أخرجه الحاكم فى المستدرك ، وأقره الذهبى فى مختصره .

وماروه عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإســــلام إذا فقهوا(١) .

فمن كانت له أخلاق وسماحة ولين قلب وعطف ورحمه وسخاوة نفس فى الجاهلية ، فإذا فقه الإسلام وفهمه كان خيارهم فى الإسلام .

فالناس أصلهم من التراب ، فكما كان بعض التراب معدن فضة ، وبعضه معدن ذهب ، وبعضه معدن حديد ، وبعضه معدن رصاص ، وكحل وزرنيخ ، وأشباه ذلك ، فإنما خلقوا من وجه الأرض ، فلما نفخ الروح فيه رجع كل إلى تربته ومعدنه .

إن أبدال أمتى لم يدخلوا الجنة بالأعمال ، ولـكن إنما دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس وسلامة الصدر ، ورحمة لجميع المسلمين .

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بكثرة صلاتهم ولاصيامهم ، ولـكن يدخلوها (هكذا فى الأصل) بسلامة صدورهم وسخاوة أنفسهم ، قال : وزاد الخلال : والنصح للمسلمين .

إلى غير ذلك من الروايات التى يقوى بعضها بعضا

(١) روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الناس أكرم ؟ قال . أكرمهم عند الله أتقاهم ، قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال فأكرم الناس يوسف نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن خليل الله ، قالوا ليس عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن العرب تسألونى ؟ قالوا نعم ، قال : فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا كذلك روى مسلم بسنده عن أبى هريرة قال : قيل يارسول الله ، من أكرم الناس؟ قال : أتقاهم ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال فيوسف نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن خليل الله ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن

وقال صلى الله عليه وسلم : تجد الناس كالإبل المائة ، ولا تجد فيها راحلة(١) .

والذى يصلح من الإبل للراحلة يكون نجيبا ، فالنجائب قليلة ، والإبل كثيرة ، والنجيب يسير إلى الله تعالى سيرا هاديا مستقيما ، قصدا إذا سار ، وإذ حمل حمل الأثقال لنجابته وكرمه ، فأعلم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الذى يسير إلى الله تعالى سيرا هاديا مستقيما ويحمل(٢) أثقاله وأثقال العبودة لقليل ، كما قل وجود الراحلة فى الإبل ،

العرب تسألونى ؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا. كتاب الفضائل رقم ١٦٨ ص ١٨٤٦ .

كذلك روى أحمد بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا . رقم ٧٤٨٧ جـ ١٣ ص ٢٤١ .

(١) روى البخارى بسنده أن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما الناس كالإبل المائة ، لا تكاد تجد فيها راحلة ـ كتاب الرقاق جـ ٥ ص ١٣٠ .

وروى مسلم بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تجدون الناس كإبل مائة لا يجد الرجل فيها راحلة . كتاب فضائل الصحابة رقم ٢٣٢ ص ١٩٧٣ .

وقد رواه أحمد بسنده عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة . رقم ٦٠٤٤ ، ٦٠٤٩ ج ٨ ص ٢١٢ ، ٢١٣ وفى أماكن أخرى .

(٢) فى ز : ويحتمل .

لأن الراحلة تصلح للسير والركوب ، وسائر الإبل ثقال، إنما تصلح للحمولة .

فالمجتهدون مع أخلاق ضعيفة مشتبكة ، لم يروضوا أنفسهم ، فثوابهم الجنة إذا صدقوا فى جهدهم .

والذين راضوا أنفسهم وأدبوها حتى تخلقوا بأخلاق الكرام ، فثوابهم من القربة ، فتح الله تعالى لقلوبهم طريقا إلى الله تعالى ، حتى أشرقت الأنوار فى صدورهم ، وعلموا من الله ما لم يعلمه المجتهدون ، ولا يستوى العلماء والجهال ، ولا يستوى الفرسان وأصحاب الحمر فى السير وقطع المسافات ، وقال فى تنزيله : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » (العنكبوت : ٦٩) ، فمن جاهد نفسه فى أخلاق السوء حتى تركها ، هداه لسبيله ، أى فتح لقلبه طريقه إليه ، لأن تلك الأخلاق هى التى حجبته عن الله تعالى .

وروى لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : رأيت رجلا من أمتى جاثيا عن ركبتيه ، فجاءه حسن خلقه فأدخله على الله .

فقد أنبأك فى هذا الحديث أن سوء الخلق يحجب القلب عن الله تعالى .

ولذلك قال فى حديث سلمة بن وردان[1] :

---

(١) سلمة بن وردان الليثى الجندعى ، مولاهم أبو يعلى المدنى . قال عبد الله بن أحمد عن أبيه : منكر الحديث ، ضعيف الحديث ، وقال الدورى عن ابن معين : ليس بشىء . وقال ابن أبى حاتم : ليس بقوى ، عامة ماعنده عن أنس منكر ، وقال أبو داود والنسائى : ضعيف . انظر ترجمته فى ميزان الاعتدال ص ١٩٣ ج ٢ وتهذيب التهذيب ص ١٦٠ ج ٤ .

عن أنس بن مالك(١) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ترك الكذب وهو باطل بنى له فى ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بنى له فى وسطها ، ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها(٢) .

وأعلى الجنة منازل المقربين ، وحسن الخلق عندنا على ثلاثة منازل:

فأول منزلة منها : أن يحسن خلقه مع أمره ونهيه ، فإذا ائتمر بأمره ، وانتهى عن نهيه ، فقد صار إلى أول منزلة .

ثم بعد ذلك يحسن خلقه مع جميع خلقه من الآدميين والحيوانيين، ويداريهم ويحسن معاشرتهم ، فهذه أوسط منزلة .

ثم بعد ذلك يحسن خلقه مع الله فى أرضه ، فهذه أعلى منزلة .

---

(١) أنس بن مالك بن النضر ، الأنصارى ، أبو حمزة المدنى ، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نزيل البصرة ، قال أنس : جاءت بى أم سليم إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأنا غلام فقالت : يارسول الله ، أنيس ، أدع الله له ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم :: اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة ، قال : فقد رأيت اثنتين ، وأنا أرجو الثالثة ، وقال أبو هريرة مارأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن أم سليم ، قال خليفة بن خياط فى تاريخه: مات سنة ٩٣ ، وهو ابن ١٠٣ سنة ، قال فى تهذيب التهذيب وهو الأصح .

(٢) وقد رواه ابن ماجه عن سلمة بن وردان عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ترك الكذب وهو باطل بنى له قصر فى ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بنى له فى وسطها ، ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها . رقم ٥١ ، ص ١٩ — ٢٠

كذلك : أخرجه الترمذى ، وقال : هذا حديث حسن لانعرفه إلاّ من حديث سلمة بن وردان . ج ٣ ص ٢٤١ — ٢٤٢

فمن بلغ هذه المنزلة الثالثة فقد كمل واستوجب أعلى الجنان ، وذلك قوله « فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء من تزكى » (طه : ٧٥ – ٧٦) فالزكاء فى القلب ، والنمو فى الصدر .

قال له قائل : وكيف يحسن خلقه مع الله ؟؟

قال : مادبر له فى أرضه من الأحوال ولسائر عبيده قنع ورضى به ، وألقى بيديه سلما ، وكيف يحسن خلق امرىء كان فى سفر فنزل (١) منزلا ، فأنزل الله رحمته ليسقى عباده وبلاده وبهائمه ، ويحى أرضه لمعاش أمة لايحصى عددهم . وهو يكره ذلك . ويثقل عليه تدبيره ، ويأبى ذلك ، ويضيق صدره ، فإنما ذلك للشهوة التى فيه ، يريد أن يقضى نهمته ، فهذا سيء الخلق مع الله عز وجل ، يدبر لنفسه ، ولا ينظر إلى ماسبق له من تدبير الله تعالى قبل خلق العرش والكرسى واللوح والقلم ، وذلك يوم المقادير ، فإذا انتقض عليه تدبيره لنفسه ضاق صدره وتلوى وتكدر عليه يومه .

* * *

(١) فى ز : فأنزل ، مع وجود إصلاح بالهامش .

وســـألت

ماهى ؟ وكيف الزهد فيها ؟ وعن أشباه ذلك من المسائل

فقد أكثرت ، وأنا أجمل لك .

إن الدارين خلقتا للآدميين ، فهذه دنيا ، وتلك آخرة ، وسميت دنيا لأنها أدنى اليك من تلك ، وسميت فى موضع آخر : أولى ، فقال فى تنزيله : « وإن لنا للآخرة والأولى » (الليل : ١٣) ، وسميت فى موضع آخر : عاجلة ، وتلك : آجلة . فهما داران ، إحداهما ثواب (١) لأعمال هذه الدار ، فنعيم تلك الدار ثواب دائم لا ينقص ولا يفنى أبدا ، ونعيم هذه الدار من نثارة تلك الدار ، وهى بلغة ومتعة وزاد ، وأهلها مجتازون إلى تلك الدار .

فمن ترك العبودة ، وذهب برقبته ، فضيع أمر الله وفرائضه ، وتعدى فى حدوده بهذه الجوارح السبعة : بطنه ، ولسانه ، وفرجه ، ويده ، ورجله ، وسمعه ، وبصره ، فقد هيأله سجنا مشحونا بغضبه وسخطه وناره وألوان العذاب . فإنما ذم من الدنيا كل شيء خلا من طاعة الله عز وجل ، فإذا عصى الله تعالى بذلك الشيء ، ذهبا كان أو فضة ، أو مأكولا أو مشروبا ، أو ملبوسا ، فتلك دنيا مذمومة ، وكلما ذكر من الذم فى العلم ، فإياه عنى .

---

(١) فى ز : بوئت

وذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الدنيا معلونة ملعون مافيها إلا ذكر الله وما أوى[1] إليه [2] ، يعنى الطاعات ، وجميع ما ابتغى به وجه الله تعالى من الأعمال ، فهو الذى يأوى إلى ذكر الله عز وجل .

فكم من درهم عصى الله تعالى به فتلك دنيا مذمومة ، غرته حلاوتها، فأمسكه لنهمته ، حتى عصى الله فيه ، وآخر ملكة لله وأمسكه لله ، حتى أنفقه فى حق ، فأطاع الله فيه ، فتلك آخرته عملها فى دار الدنيا .

وقال فى تنزيله : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن

---

(١) فى ظ : آوى .

(٢) أخرج الترمذى فى سننه عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله وما والاه ، وعالم أو متعلم . وقال هذا حديث حسن غريب رقم ٢٤٢٤ ص ٣٨٤ ج ٣ فى كتاب الزهد .

كذلك أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الدنيا ملعونة ؛ ملعون مافيها إلا ذكر الله وماوالاه، أوعالما أو متعلما . رقم ٤١١٢ ص ١٣٧٧

وذكره فى الجامع الصغير برواية ابن ماجه عن أبى هريرة ورواية الطبرانى فى الأوسط عن ابن مسعود وحسنه ، وذكر رواية البزار عن ابن مسعود : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا أمرا بمعروف أونهيا عن منكر ، أو ذكر الله ، وصححه .

نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا » (الإسراء : ١٨ — ١٩) .

فالكافر نهمته فى الدنيا ومافيها ، وهو عن الآخرة غافل .

والمؤمن نهمته الآخرة ومافيها ، ولكنه مبتلى بشهوات الدنيا ولذاتها ، فإن حفظ الحدود ، ولم يتناول منها ماحرم الله عليه ، فقد صدق الله فى إيمانه وإن وقع فيها بغلبة أو (١)زلة وغرة ، فالتوبة مقبولة إن تاب ، وإن قدم على الله غير تائب فأمره إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه ، وله حرمة الإيمان يومئذ أن لايخرج من سرادق الرحمة ، كما يخرج الكفار ، ولايقام فى صفوفهم ، ولايسود وجهه مع المسودين .

* * *

وســـألت

عن حال النبى صلى الله عليه وسلم أنه كانت له قرى وعبيد وإماء ومن المراكب بغلة وناقة (٢) ، وقوله : إنا لنا مائة شاة ، وما كان يعطى نساءه من النفقات والتمر والأوساق

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان خازنا من خزان الله ، فما كان

(١) فى ظ : و ، بدون ألف .

(٢) ساقطة من ز .

يمسكه فإنما يمسكه على نوائب حقوق الله تعالى ، بمنزله عبد أعطاه مولاه مالا (١) ، فهو يمسكه ، فأينما أشار (٢) مولاه إلى شيء صرفه هناك :

ألا ترى أنه قال : إنا معاشر الأنبياء لا نورث ، ماتركناه فهو صدقة (٣) ، لأن الأنبياء عليهم السلام خزان الله تعالى ، وسائر الخلق

---

(١) ساقطة من ز .

(٢) فى ز : شار ، ، بدون ألف .

(٣) أخرج هذا الحديث فى عدة من كتب الحديث ، فقد أخرجه البخارى فى كتاب الخمس ، وفضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، والمغازى والفرائض وغيرها وأخرجه الترمذى فى كتاب السير ، وأبو داود فى كتاب الإمارة .

وكذلك فى كتب التاريخ .

روى مسلم بسنده عن عائشة أنها قالت : إن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أردن أن يبعثن عثمان بن عفان إلى أبى بكر فيسألنه ميراثهن من النبى صلى الله عليه وسلم ، قالت عائشة لهن : أليس قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نورث ، ما تركت فهو صدقة . كتاب الجهاد والسير رقم ٥١ .

كذلك روى مسلم أن عروة بن الزبير أخبر أن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أخبرته أن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت أبا بكر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أفاء الله عليه ، فقال لها أبو بكر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا نورث ما تركنا صدقة . كتاب الجهاد والسير رقم ٥٤

كذلك رواه عن أبى هريرة رقم ٥٦ فى كتاب الجهاد والسير .

مرتزقة ، فإذا رزق العبد شيئا فقد ملك ذلك الرزق ، فهو ينفقه ، وما تركه فهو ميراث لورثته .

ومن ملك من الدنيا شيئا فتناوله وأمسكه ليقوم به فى حقوق الله تعالى فهو مأجور ، وإنما هرب منها من هرب لضعف قلبه ، وقلة يقينه ، خاف من نفسه أن يفتتن بها وتصيبه حلاوتها وأفراحها[1] ، حتى تلهيه عن ذكر الله تعالى وأمره . فقد حذر الله المؤمنين فقال : « يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » (المنافقون : ٩) فقد علم أنه يلهى العباد .

والصديقون ألهاهم حب الله وجلاله وعظمته ، فلم يقدر المال أن يلهيهم ، لأن حلاوة حب الله غالب على حلاوة حب المال ، بمنزلة من لعق عسلا ، فهو فى حلقه يتلمظ[2] حلاوة ذلك ، فإن أكل على إثر

وروى الترمذى عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : دخلت على عمر بن الخطاب ، ودخل عليه عثمان بن عفان والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، ثم جاء على والعباس يختصمان ، فقال عمر لهم : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا نورث ما تركناه صدقة ؟ قالوا : نعم . . . ج ٣ ص ٨٢ راجع البداية والنهاية لابن كثير ج ٥ ص ٢٨٥ وما بعدها .

(١) فى الأصليين : وأفراحه .

(٢) التمظ بشفتيه : ضم إحداهما على الأخرى مع صوت يكون منهما ، يقال: ماتلمظت اليوم بشىء : ماذقت شيئا ، وتلمظت الحية : أخرجت لسانها .

ذلك فرصادا (١) أو مشمشا لم يكن لتلك الحلاوة سلطان يلهيه عن حلاوة العسل ، ومن غلب على قلبه عظمة الله وجلاله وقدرته لم يبق للمال على قلبه من السلطان ما يغلب على قلبه ما فيه من علمه بالله وعظمته .

فالصديقون بهذه القوة تناولوا (٢) من الدنيا ، وإلا فكيف يستجيز أبو بكر الصديق ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعبد الرحمن بن عوف (٣)، وطلحة والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعد الذى اهتز العرش لموته (٤) ، وعامة النجباء وعلية أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم أجمعين . ووزراؤه وأئمة الهدى أن يملكوا من الدنيا ما ملكوا ، وكان لأحدهم كل يوم غلة ألف درهم ، ولأحدهم من الذهب ما يقطع بالفئوس يوم قسم ميراثه ، وإنما تناولوا هذا بقوة القلوب (٥) ، وعلمهم بالله ، ويعطون لله تعالى ، وينفقون على أنفسهم لله تعالى .

ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له رجل : يا رسول الله ، عندى دينار ، ما أصنع به ؟ قال : أنفقه على نفسك ، قال :

---

(١) الفرصاد : اسم يطلق على التوت .

(٢) فى ظ : ينالون .

(٣) فى ز : عبد الرحمن ، بدون ابن عوف ، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأحد الستة الذين أوصى عمر باستخلاف أحدهم رضى الله عنهم .

(٤) هو سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه ، وقد سبق ذكر ذلك .

(٥) فى ظ : قلوبهم .

عندى آخر ، قال : أنفقه على أهلك وولدك ، قال : عندى آخر ، قال : أنفقه على أبويك ، قال : عندى آخر ، قال : أنفقه فى سبيل الله (١) .

وذلك أخسهن (٢) وأدناهن ، أو لا ترى أنه جعل النفقة على نفسك أفضل الدنانير . وهذا إذا أنفقه (٣) لله ، لا لنهمة نفسه وشهوته .

وأما هؤلاء أبناء الدنيا ، فإنما أخذوا الدنيا رغبة وحرصا للتكاثر والفخر والخيلاء ، والتنافس وقضاء الشهوات . فما أمسكوا منها (٤)

---

(١) رواه أحمد عن أبى أهريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تصدقوا ، قال رجل : عندى دينار ، قال تصدق به على نفسك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على زوجك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على ولدك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على خادمك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : أنت أبصر ، رقم ٧٤١٣

قال أحمد شاكر فى تعليقه إن إسناده صحيح ، وإنه رواه النسائى ١ : ٣٥١، وأبو داود .

وقد رواه الحاكم عن أبى هريرة قال : أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالصدقة، فقال رجل : يارسول الله ، عندى دينار ، قال : تصدق به على نفسك ، قال : عندى آخر قال : تصدق به على ولدك ، قال : عندى آخر ، قال : تصدق به على زوجك أو قال : على زوجتك ، قال : عندى آخر ، قال : تصدق به على خادمك ، قال : عندى آخر ، قال : أنت أبصر .

وقال : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى .

(٢) فى ظ : أحسنهن

(٣) فى ز : فهذا إذا أنفقته .

(٤) ساقطة فى ز .

فلخوف [فوت] الرزق والتهمة ، وما أنفقوا فللنهمة وقضاء الشهوة واللذة ، ولا نية لهم ولا حسبة فى أخذها ،ولا فى إمساكها ، ولا فى إنفاقها، فالحساب الشديد الثقيل عليهم ، منعوا حق الله فيه ، وكثرت خصومهم ، فقال الله فى تنزيله : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » (التغابن : ١٥) ففتنة المال والولد حبهما ، وتلك الحلاوة سم تدب فى العروق ، فتشتمل على الجسد ، فمن كان قبل ذلك سقى الترياق لم يضره ذلك السم ، والترياق هو حلاوة حب الله ، لأن الترياق إذا شربه صاحبه امتلأت عروقه منه، فلم تضره الحمة ، لأن السم لا يجد مساغا ، فكذلك من امتلأت عروقه من حب الله لم تجد حلاوة حب المال فى عروقه مساغا .

فمن تناول من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين (١) مثل إبراهيم خليل الله ، وأيوب ، ويوسف ، وداود ، وسليمان عليهم السلام ، انهم يتناولون (٢) من سعة المال ومتاع الدنيا ، فإنما تناولوها (٣) بهذه القوة .

فكذلك رسولنا (٤) صلى الله عليه وسلم ، فتحت عليه خيبر (٥) ،

---

(١) ساقطة فى ز .

(٢) فى الأصل : يتناولوا . (٣) فى ز : تناولها .

(٤) فى ز : رسول الله .

(٥) خيبر : موضع مشهور على ثمانية برد من المدينة من جهة الشام ، غزاها النبي صلى الله عليه وسلم فى سنة سبع من الهجرة ، وكان بها سبعة حصون لليهود، وحولها مزارع ونخل ، وهى ناعم ، والقموص حصن ابن أبى الحقيق ، والشق، والنطاة ، والسلالم ، والوطيح ، والكتيبة .

وأعطى فدك[١] فى أموال بنى النضير [٢]. فكان يمسكها على نوائب الحق . وكذلك أصفياء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مثل أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد، رضى الله عنهم أجمعين، فهؤلاء خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ووزراؤه ، كانت أموالهم ظاهرة ، وأوقافهم من بعدهم إلى يومنا هذا قائمة ، فهذه كلها من نعم الله ، أنعم بها على عباده .

فمن شكر الله تعالى على هذه النعم ، فقد عبد الله تعالى بدنياه ، ومن عصاه من أجل هذه النعم فتلك دنياه المذمومة التى أعرض الله [٣] عنها وأبغضها .

ألا ترى أنه قال فى شأن الغنيمة : « فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا » (الأنفال : ٦٩) . وأى شىء يكون أحل من هذا وأطيب ؟ وهذا يوم

---

(١) فدك : بالتحريك ، قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان . وقيل : ثلاثة ، أفاءها الله تعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام صلحا ، فيها عين فوارة ونخل .

(٢) بنو النضير : قبيلة يهودية عاهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هجرته إلى المدينة ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم فى دية قتيلين، فدبروا قتله غدرا ، وأتاه الخبر من السماء ، فغادرهم وتجهز لحربهم ؛ ثم حاصرهم حتى طلبوا أن يجلوا ولهم ماحملت الإبل دون السلاح ؛ وأفاء الله تعالى على رسوله ماتركوا من أموالهم ؛ فقسمها على المهاجرين الأولين .

(٣) فى ز : أعرض عنها .

بدر ، فلما كان يوم أحد فى العام[1] الثانى ، تركوا المركز الذى قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تبرحوا من ههنا ، فلما رأوا الغنائم والهزيمة على المشركين ، تركوا مركزهم ، وقصدوا الغنائم ، [ف] انقلبت الهزيمة عليهم حتى قتلوا ، وكسرت رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجرح فى وجهه ، فأنزل الله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا » (آل عمران : ١٥٢) ، يعنى به الذين تركوا مراكزهم ، وإنما قصدوا الغنائم ، وقد أحلت لهم ، ولكن عصوا الله فيها ، فصارت دنيا مذمومة ، فسماها[2] دنيا ، وذمهم عليها .

فإنما ضيق على من ضيق صنعا له ، لعظيم الخطر فيه ، ولذلك قال الله عز وجل لموسى عليه السلام : إنى لأذود أوليائى عن شهوات الدنيا ، كما يذود الراعى الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة ، وأجنبهم شهواتها ونعيمها ، كما يجنب الراعى إبله عن مبارك العرة[3] يعلمك أن فى خلال هذه النعم دفلى[4] ، وأن فى مباركها عرة ، فكذلك يخاف على نفوس الأولياء أن تطمئن ولو لحظة إلى سلوة وزهرة من نعيم الدنيا .

ألا ترى إلى قول الله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به

---

(١) فى ظ : العالم

(٢) فى ظ . وسماها

(٣) العرة : الجرب ، والقذر

(٤) الدفلى : جنبية من حرائر الزهر ، للتزين .

أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » (طه : ١٣١) ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يحذر ماحذر ، حتى إنه مر يوما بإبل سمان ، تمشى فى أبوالها من السمن ، فلف رأسه فى ملاءته ، وأخرج إحدى عينيه يمشى بها ، حذرا أن يمد عينيه إلى تلك الإبل ، فإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأمن ، فمن بعده أحرى ، ولكن هؤلاء القوم لم يطلبوا بحرص ، ولكن سعوا على عيالاتهم ، فبورك لهم ، فأمسكوه بقوة القلوب على نوائب الحق ، على تلك القوة التى وصفنا بديا .

بلغنا أن إبراهيم صلوات الله عليه وسلم كانت له بقر ، فكانت عجاجيله تسمن على ألبان مثل الزبد من البركة ، فكانوا يعطون المال فيمسكون على تدبير الله عز وجل لهم[1] ، كما فتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدك ، وأموال بنى النضير ، فصيرت طعمة له إلى أن مات ، فقال الله : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء »(الحشر : ٦) فأعطى سلطانا[2] على قريظة والنضير ، من غير قتال ولا حرب ، وخص بتلك الغنائم دون أصحابه ، فكان ينفق منها فى نوائبه ، فهذا تدبير الله عزوجل له ، فكان لا يطلب ، وكان[3] لا يخرج من تدبير الله ، إذا أعطاه أنفق وأمسك على نوائبه .

(١) لهم : ساقطة فى ظ .
(٢) فى ز : سلطان .
(٣) وكان : ساقطة فى ظ .

وســـــألت

عن قوله « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »
(الحجرات : ١٣)
قلت : هل يفضل التقي مع قلة العلم على العالم الكثير العلم إذا لم يكن معه التقوى

فاعلم أن الذي لا يكون معه كثير تقوى ليس بعالم ، ذلك حمال أسفار . قال الله في تنزيله : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » الآيه (الجمعة : ٥) ، فلما تركوا العمل بما فيها سماهم حمال أسفار ، عن مجاهد [١] قال : إنما العالم الذي يخاف الله .

فالعلماء ثلاثة : عالم بالله ، ليس بعالم بأمر الله عز وجل ، فهذا نسيج وحده ، وعالم بالله وعالم بأمر الله ، فهذا كامل ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، فهذا إنما لزمه اسم العلم ، لعلمه بأحكامه ، فإذا كان جاهلا بالله ، فذاك العلم يحرقه ، لأنه يستكبر به . ويطلب رئاسة ، ويتأكل [٢] به حطام الدنيا .

* * *

---

(١) هو مجاهد بن جبير المقرىء المفسر أحد الأعلام الاثبات .
قال يحي بن القطان : مات مجاهد سنة أربع ومائة ، وأجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به .

(٢) في ظ : ويأكل .

وســـــألت

عن قول من قال : ليس فى الفرض رياء

وإن للفرض زينة وحسناً[١] ، والفرض قد عمل به العامة ، فكيف يرائى بشىء قد تعمله العامة ؟ وهم فى فعله شرع سواء ، فلم يرائى ؟ كلهم عمال بذلك ، إنما الرياء فى زينته وحسنه ، فإذا استعمل تلك الزينة وذلك الحسن فى فرضه كان رياؤه فى ذلك دون نفس الفرض .

* * *

وســـــألت

عن الفرق بين التقوى والورع

فالتقوى وقاية القلب ، والورع هو[٢] الكف عن كل ما نهى الله عنه ، وروى عن واثلة بن الأسقع قال : قلت : يارسول الله ، من الورع ؟ قال : الذى يقف عند الشبهة .

فأعمال الورع بالجوارح ، والتقوى بالجوارح والقلب ، وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا إن التقوى ههنا ، وأشار إلى

(١) فى الأصل : وحسن بدون ألف

(٢) هو : ساقطة فى ز .

صدره[١] . وقال الله فى تنزيله : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (الحج : ٣٧) .

فالتقوى حسن النية ، وسلامة الصدر من الآفات ، وذلك أن الله وضع فى الأرض بيتا استخلصه لنفسه ، وجعله مبوأ ذكره ، وسماه كعبة وحرما ، وجعله قياما للناس ، وسماه البيت المحرم ، وسما بكة ، ووضع فى جوف الآدمى قلبا استخلصه لنفسه ، فلم يكله إلى أحد ، وجعله بين أصبعين من أصابع الرحمن ، ولم يطلع عليه ملكا ولا نبيا ، ولا أحدا من خلقه ، فهو[٢] يقلبه كيف يشاء . ووضع فيه معرفته حتى استنار بنوره ، وضرب له مثلا فى تنزيله ، فقال : « كمشكاة فيها مصباح » (النور : ٣٥) ، فمصباح الله من نوره فى قلوب الموحدين ، ثم جعل صدره له حرما ، وجعل للقلب عينين يبصران بذلك المصباح ما يجرى فى الصدر ، فمن اتقى على كعبة الله وحرمه أن يحدث فيه فسادا أو معصية ، فههنا أحق أن يتقى على قلبه وصدره أن يحدث

---

(١) روى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتحاسدوا ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم ، لايظلمه ولا يخذله ولا يحقره ؛ التقوى ههنا ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، كتاب البر والصلة والآداب رقم ٣٢ ص ١٩٨٦ .

كما رواه الترمذى عن أبى هريرة وقال هذا حديث حسن غريب .

ورواه أحمد عن أبى هريرة رقم ٧٧١٣ ج ١٤ ص ١٥٤ .

(٢) سقط فى ظ قوله : من خلقه فهو .

فيه غلا أو غشا أو سوءا ، حتى يتأدى ذلك إلى جوارحه ، فيفتضح عند رب العالمين .

* * *

وسألت

عن قول الله عز وجل فى شأن الأكل من البيوت التى سماها ، ثم قال : أو صديقكم (١)

فهو كما ذكر الله ، وكل اسم فى التنزيل فهو على الحقيقة . فالصديق من صادقك فى كل شىء دينا ودنيا ، وائتمنك على دينه ودنياه ، وائتمنته على دينك ودنياك . فإذا لم تأمن من (٢) خيانته فى شىء واحد وإن دق ، فالصدق مفقود . فإياك وأن تتناول شيئا إلا بإذنه .

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم ، ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتا ، فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » (النور : ٦١) .

(٢) من : ساقطة من ز .

وروى عن محمد بن على بن الحسين بن على بن على بن الحنفية رحمة الله عليهم(١) أنه قال لقوم : أيدخل أحدكم يده فى كيس أخيه ؟ قالوا : لا ، قال : لستم بإخوان ، فإذا ذهبت الأخوة فليست هناك صداقة :

* * *

وســـائل

عن قوله : « ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها » (النور : ٣١)

فسروا ذلك : الكحل والخاتم .

وقوله : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » (النور : ٣٠) فليست هذه الآية بداخلة على تلك . فهذا غض البصر عن عورات الرجال والنساء ، « ويحفظوا فروجهم » أن لا يتعروا ، ويستتروا . وذلك الذى يظهر من النساء : الوجه واليد ، لأنها تمشى ، فتحتاج إلى أن تكشف عن بعض وجهها ، وتتناول باليد ، فتكشف عن بعض يدها . فالعضو الواحد إذا حل النظر إلى بعضه حل إلى الكل من ذلك العضو ، بعد أن لا ينظر بشهوة .

* * *

---

(١) عليهم : ساقطة من ظ .

وسـألت

عن قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » (النساء : ٨٣) من القليل ههنا ؟ وما معنى الاستثناء ؟

فإن الاستثناء واقع على ما تقدم من الكلام ، على ماروى عن ابن عباس رضى الله عنه ، وهو قوله : « لعلمه الذين يستنبطونه[1] » (النساء : ٨٣) إلا قليلا منهم ، فأما الفضل والرحمة إذا فقدا تبع الشيطان الجميع ، وإنما ترك كل من ترك اتباع الشيطان فبفضل الله وبرحمته ترك ، ولولا فضل الله ورحمته لاتبعوا كلهم الشيطان ، وما نال[2] آدمى خيرا دق أو جل إلا بفضل الله ورحمته .

* * *

(١) الآية بتمامها هى : وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » وقد ظن السائل أن استثناء القليل واقع على الضمير فى « عليكم » من قوله : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » فبين الحكيم أن الاستثناء واقع على الضمير فى « منهم » من قوله : « لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

(٢) فى ز : وما قال .

وســـألت

عن قوله : يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال حبة(١)
ومثقال شعيرة من خير ، وذكرت أن خروجه بلا إله
إلا الله ، أولى من خروجه بالخير

فاعلم أن الله تعالى يشفع الرسل والملائكة فيمن(٢) يوجد عنده شيء من الخير ، وإن دق ، لأن ذلك الخير هو تصديق الإيمان ، وأما من لم يوجد عنده تصديق ، فذلك فى غيب الله ، فالله أولى بالعفو عنه ، ألا ترى أنه قال فى حديث الشفاعة ، قال : فأقوم فى المرة الرابعة ، فأقول : يارب شفعنى فيمن قال مرة واحدة لا إله إلا الله . فيقول : يا محمد ، إنها ليست لك ، ولا لأحد من خلقى ، فتخرج الرحمة فتسأل ربها ، فيخرجون برحمة الله تعالى .(٣)

---

(١) فى ز : مثقال حبة ذرة . ولعلها تكون : مثقال حبة ومثقال ذرة

(٢) فى ظ : فمن .

(٣) يبدو فى جواب هذه المسألة وجود اضطراب واضح ، ولعل هذا الاضطراب راجع إلى عدم ضبط النساخ ؟ وعدم إدراكهم لخطورة هذه المسألة ذلك أن رحمة الله تدرك من دخل حصن لا إله إلا الله كما هو واضح فى آخر الجواب ولكنه فى خلال الجواب يتحدث على من لم يوجد عنده تصديق ؟ ويعطيه الأمل فى العفو عنه ، وهذا غير وارد ، خاصة وأنه يستدل على ذلك بما جاء فى آخر الجواب ، فالدليل وهو بشأن من قال لا إله إلا الله لا يتعلق بمن لم يوجد عنده

. . . .

تصديق ، وهذا هو الاضطراب ، مما يدل على أن إعطاء الأمل لهذا الصنف الذى لم يوجد عنده تصديق غير مراد ـ قطعا ـ لصاحب هذا الجواب .

وقد روى البخارى فى كتاب التوحيد ص ١٧٩ من الجزء التاسع قال : حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد حدثنا معبد بن هلال العنزى قال : اجتمعنا ناس من أهل البصرة فذهبنا إلى أنس بن مالك ؛ وذهبنا معنا بثابت (البنانى) إليه يسأله لنا عن حديث الشفاعة فإذا هو فى قصره فوافقناه يصلى الضحى ، فأستاذنا فأذن لنا وهو قاعد على فراشه فقلنا لثابت : لا تسأله عن شىء أول من حديث الشفاعة . فقال : يا أبا حمزة هؤلاء إخوانك من أهل البصرة جاءوك يسألونك عن حديث الشفاعة ؟ فقال حدثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال:

إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم فى بعض فيأتون آدم فيقولون : اشفع لنا إلى ربك فيقول : لست لها ؛ ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن ؛ فيأتون إبراهيم فيقول : لست ، لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله ، فيأتون موسى فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته : فيأتون عيسى فيقول : لست لها ، ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فيأتونى فأقول ، أنا لها .

فأستاذن على ربى ؛ فيؤذن لى ويلهمنى محامد أحمده بها ؛ لا تحضرنى الآن فأحمده بتلك المحامد ؛ وأخر له ساجدا ، فيقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع .

فأقول : يارب أمتى أمتى فيقال : انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال شعيرة من إيمان فأنطلق فأفعل .

. . . .

ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا فيقال : يامحمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك ، وسل تعط ، واشفع تشفع .

فأقول : يارب ، أمتى ، أمتى ، فيقال : انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان فانطلق فأفعل .

ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجدا ؛ فيقال : يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع.

فأقول : يارب ؛ أمتى أمتى فيقول : انطلق فأخرج من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان ؛ فأخرجه من النار ، فأنطلق فأفعل .

فلما خرجنا من عند أنس قلت لبعض أصحابنا : لو مررنا بالحسن وهو متوار فى منزل أبى خليفة بما حدثنا أنس بن مالك .

فأتيناه فسلمنا عليه فأذن لنا ؛ فقلنا له : يا أبا سعيد جئناك من عند أخيك أنس بن مالك فلم نر مثل ما حدثنا فى الشفاعة .

فقال : هيه . فحدثناه بالحديث فينتهى إلى هذا الموضع .

فقال : هيه . فقلنا : لم يزد لنا على هذا .

فقال : حدثنى وهو جميع منذ عشرين سنة فلا أدرى أنسى أم كره أن تتكلوا . قلنا : يا أبا سعيد فحدثنا . فضحك وقال : خلق الإنسان عجولا ؛ ما ذكرته إلا وأنا أريد أن أحدثكم .

حدثنى كما حدثكم به قال : ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك ، ثم أخر له ساجدا ؛ فيقال : يا محمد ؛ ارفع رأسك ؛ وقل يسمع وسل تعطه ؛ واشفع تشفع .

فأقول : يارب أئذن لى فيمن قال لا إله إلا الله .

وســـألت

عن الاعتصام بحبل الله ، وعن الاعتصام بالله

فإن الله تعالى خلق العباد ، وهو أعلم بما يفسدهم وما يصلحهم ، فحرم وأحل ، وأحل[١] كما حرم بعلمه[٢] بفسادهم فى ذلك ، فحبل الله القرآن وهو كلام ، طرف منه عند العباد ،وطرف عنده ، كذلك[٣] روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فإذا اعتصمتم بالله أمن الذى يفسده ، فإنما يعتصم بهذا الحبل ، لأنه[٤] لا يدرى من الذى يفسده إلا بما تبين[٥] له فى هذا القرآن . فلولا القرآن ما اهتدى العباد لما يصلحهم مما يفسدهم ، فمن تأدب بأدب القرآن فقد اعتصم بحبل الله ، أى : امتنع بحبل الله عما يفسده .

فيقول : وعزتى وجلالى وكبريائى وعظمتى ؛ لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله . اهـ .

(١) وأحل ؛ ساقطة فى ظ .

(٢) فى ز : فعلمه .

(٣) فى الأصل ز : ولذلك ما روى ؛ وفى ز : ولذلك روى وقد اخترت ما أثبته لأن الحكيم قد روى فى نوادر الأصول ص ٦٨ عن حذيفة بن أسيد الغفارى قوله صلى الله عليه وسلم : الثقل الأكبر كتاب الله تعالى سبب طرفه بيد الله تعالى وطرف بأيديكم .

(٤) فى ظ : أنه .

(٥) فى ز : بين .

وثم للنفس بعد علمه بما فى هذا القرآن تنازع وخصومة وتوثب فى هذه المحارم،ويحتاج العبد إلى أن يعتصم بالله ويجاهد نفسه بقوة ما أعطى من العلم والعقل والفهم والحفظ والذهن والمواعظ ، ويعلم مع ذلك أنه لا ينجيه من ذلك إلا فضل الله ورحمته .

فإذا كان قلبه مع الله فى ذلك ، ولا يلجأ إلى أحد سواه فى الامتناع من ذلك السوء ، كان قد اعتصم بالله عز وجل .

وإذا(١) التجأ إلى قوته وإلى ما أعطى من العلم كان قد ترك الطريق فيخذل .

قال الله تعالى : « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » (آل عمران : ١٠١) .

✲ ✲ ✲

(١) فى ظ : وإلى .

خاتمـــة المخطوطة (ز)

تمت أجوبة المسائل بحمد الله وعونه
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما

* * *

خاتمـــة المخطوطة (ظ)

تمت أجوبة المسائل بعون الله تعالى ومنه وحسن مشيئته وتوفيقه . والحمد لله أولا وأخيراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .

كتاب

بيان الكسب

للإمام

أبي عبد الله الحكيم الترمذي

تحقيق وتعليق وتقديم

الدكتور

عبد الفتاح عبد الله بركه



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، ولى الحمد وأهله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، وبعـــد :

فمن أبرز المبادىء الأساسية فى حياة المسلم الكامل أن يتمسك بقدر كاف من الزهد فى متع الحياة الدنيا وطيباتها ، بحيث تصبح له قدرة تامة - أشبه ما تكون بالملكة الفطرية - تمكنه من التحكم فى نفسه ورغباتها عندما تعرض له شهوة من الشهوات ، أو تثور به نزوة من النزوات يخشى منها على سلوكه أن ينزلق إلى المحرمات أو المكروهات .

يضاف إلى ذلك عنصر يتكامل معه هو عنصر التوكل على الله فى كافة الشئون بحيث يجد المرء من ذاته ما يدفعه عن سفساف الأمور إلى معاليها ، ويرفعه عن مستوى السلوك السوى إلى مستوى مكارم الأخلاق .

وقد كان سلفنا الأوائل على قدر كبير من الزهد والتوكل كما رسمتهما آيات الكتاب الكريم وأحاديث السنة النبوية المطهرة .

وظل الأمر على ذلك من الناحية العملية التى تعتمد فى أسسها النظرية على مبادىء الكتاب والسنة . إلى أن تطور المجتمع الاسلامى بعد عصر الفتوحات وخلال عصر الإمارات الوراثية، ليجد جانب كبير من المجتمع الفرصة واسعة للانغماس فى وسائل الترف، وابتداع أسباب المتعة ، وفى

مقابل ذلك وجد جانب آخر من هذا المجتمع بشعوره الدينى المرهف ضرورة التمسك بهذين المبدأين الأساسين فى الزهد والتوكل على الله، وتمثل ذلك أو فى تمثيل فى طائفة الصوفية، حتى أصبح - ينسب إليها ويدل عليها، كأنما صار الزهد والتوكل على الله من شأن الصوفية وحدهم، مع أنه مبدأ إسلامى عام، يتوجه الخطاب به إلى الكافة، كما يعرف ذلك من يتلو القرآن، ومن يقرأ كتب السنة والحديث.

ولذلك فإن الزهد والتوكل قد أخذ على أيدى المتصوفين صورة تتناسب مع أحوالهم، وما يمارسونه من رياضات نفسية، ومجاهدات روحية.

لقد كان الزهد يمارس بصورة معتدلة، تتناسب مع ما كان عليه المسلمون فى بدء أمرهم من قلة ذات اليد. فلما أقبلت الدنيا عليهم، وانغمس البعض فيها حتى شحمتى أذنيه جعل الصوفية فى مقابلهم يبالغون فى زهدهم، ويستقصون دواعيه ومظاهره ونتائجه، حتى سهل عليهم القول بالزهد فى الدنيا بأسرها، لكراهتهم لها، وكراهتهم لكل ما يتعلق بها، أو يصدر عنها.

وقد ذكر القشيرى فى رسالته أن الحسن البصرى قال:[1]

الزهد فى الدنيا أن تبغض أهلها، وتبغض ما فيها.

وقد وصل استقصاؤهم لمعنى الزهد إلى حد إنكار وجود زهد على

---

(١) ص ٦١.

الحقيقة ، لأن الزهد لا يطلق على الحقيقة إلا إذا كان موضوع الزهد حلا لا مرغوبا فيه ، وليس فى الدنيا بأسرها مما يمكن أن يكون حلالا صريح الحل ، ويكون فى نفس الوقت مرغوبا فيه من رجل كامل .

وقد روى القشيرى عن أبى حفص قوله :(١)

الزهد لا يكون إلا فى الحلال ، ولا حلال فى الدنيا ،(٢) فلا زهد .

وهذه مبالغة فى الزهد جعلتهم يكتفون فى حياتهم بأقل القليل ، بل بما هو دون الكفاية ، حتى تعود الكثيرون منهم على البقاء أياما ـ تقل أو تكثر ـ دون طعام أو شراب .

لكن البدن وحياته ، يدفع صاحبه ولا بد للحصول على ما يبقى أنفاسه ويسد رمقه مهما يكن قليلا .

وهو إذا أهمل ـ زهدا ـ طلب ما يزيد على الحاجة الضرورية لبقاء حياته ، فإنه لا يستطيع أن يهمل طلب هذا القدر الضرورى .

وهنا يظهر العنصر الآخر ، وهو عنصر التوكل على الله .

ولم يكن التوكل ـ عند المسلمين الأوائل ـ يتعارض مع الإضطراب

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٦١ .

(٢) المقصود بإنكار وجود الحلال فى الدنيا أن رغبات النفس ومشتهياتها مذمومة فالطيبات وإن كانت حلالا أباحها الله تعالى لكن تناولها بشهوة النفس يصبغها بصبغة شيطانية لاتكون معها فى مرتبة الحلال الذى أحله الله .

والحركة والسعى ، وطلب الرزق . لكنه مع مرور الوقت ،ومع المبالغة والتدقيق أصبح ينظر إليه فى أول مقاماته - كما يروى القشيرى عن سهل بن عبد الله[١] - بحيث يكون العبد بين يدى الله عز وجل كالميت بين يدى الغاسل ، يقلبه كيف شاء ، لا يكون له حركة ولا تدبير .

فهل يتم التوكل بهذا المعنى مع القيام بالكسب وطلب القوت ؟

أم أن العمل لكسب المعاش يتعارض مع الثقة المطلقة فى الله . والاعتماد الكامل عليه ؟

لقد وجدنا من يقتصد فلا يرى مانعا فى التوكل يمنع من طلب الكسب ، ولا قادحا من طلب الكسب يقدح فى التوكل .

كما وجدنا من يتشدد ، مع تفاوت فى درجات هذا التشدد ، حتى الى حد ذم الكسب ، وإسقاط رتبة من يقوم به من المريدين والسالكين .

وإذا ضربنا صفحا عن ذكر المصدر الأول من المسلمين ، ووصلنا إلى الوقت الذى بدأت تثار فيه هذه القضية ، وجدنا إبراهيم بن أدهم يقوم بطلب الرزق ، ويعبر عن الكسب بقوله :

عليك بعمل الأبطال : الكسب من الحلال والنفقة على العيال[١] .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٨٣ .

(٢) السراج : اللمع ص ٢٦٠

ثم بدأ التشدد يظهر فى أقوال غيره شيئاً فشيئاً ، فيقول الفضيل ابن عياض :

أبى الله أن يجعل أرزاق المتقين إلا من حيث لا يحتسبون[١] ، فإذا وصلنا إلى شقيق البلخى (١٩٤ ﻫ) وجدنا الأمر يزداد تدقيقاً ، وقد تعرض أبو العلا عفيفى لهذه النقطة ويحسن أن نورد هنا وجهة نظره ، يقول :

« فنرى شقيقاً البلخى المتوفى سنة ١٩٤ ﻫ وهو من أفضل تلامذة إبراهيم بن أدهم يفيض فى الكلام عن التوكل الصوفى ، والرجوع إلى الله فى كل شىء . . . .

« يرى شقيق أن التوكل معناه « طمأنينة النفس إلى موعود الله » ، فإذا أردت أن تعرف مقدار صدق الزاهد فى توكله ، فانظر بأى الأمرين يأخذ ، أبما وعده الله أو بما وعده الناس ؟ وإذا كان الرجل لا يستطيع أن يزيد فى حياته ، أو يغير من طبعه ، فكيف يستطيع أن يزيد فى رزقه ؟ ولماذا يتعب نفسه فى اقتناص أشباح زائله ؟ أو يتكالب على المكاسب التى قلما تخلص من الشبهات ؟ أدت هذه الفكرة العميقة فى الجبرية بشقيق إلى القول بالتسليم المطلق لإرادة الله ، والإذعان التام لقضائه وقدره ، والتعطيل التام للارادة الإنسانية ، والرضا التام بما هو مقدر فى علم الله .

---

(١) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٤ وهو بذلك يشير إلى الآية الكريمة فى سورة الطلاق « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

وكان من نتائجها قولان ، كان لهما أثرهما البالغ فى تطور التصوف بعد عصر شقيق .

أولهما : ترك الكسب ، لأن كل المكاسب مسممة .

وثانيهما : تفضيل الفقر على الغنى[١] اهـ .

وقد أفاض شقيق فى هذه المعانى ، ولكنى أود أن أورد نصين نقلهما له السلمى فى طبقاته[٢] ، يتبين منهما كيف يرى أنه ينبغى للمرء أن لا يأخذ إلا عندما يخشى أن يكون عاصيا بالترك ، وذلك إنما يكون عند حالة الاضطرار التى تبيح تناول الميتة .

فقد روى شقيق بسنده ، عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله علية وسلم : « من أخذ من الدنيا من الحلال حاسبه الله به ، ومن أخذ من الدنيا من الحرام عذبه الله به » .

وسئل : « بأى شىء يعرف الرجل أنه أصاب القلة ؟ قال : بأن كل شىء يأخذه من الدنيا ، يأخذه فى حالة يخاف — أن لم يأخذه — أن يأثم » .

وقد نشر هذه المقالة من بعد تلميذه حاتم الأصم (٢٣٧ هـ) وأحمد ابن خضروية (٢٤٠ هـ) ومحمد بن الفضل البلخى (٣١٩ هـ) .

وأما أبو سليمان الدارانى (٢١٥ هـ) فإنه مع إسقاطه درجة من

---

(١) الملامتية والصوفية ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) ص ٦٢ — ٦٤ .

يسافر فى طلب معاشه ، لا يرى له أن يتفرغ للعبادة ، بينما يتولى غيره أمر معاشه روى ابن الجوزى[١] عنه أنه قال : إذا طلب الرجل الحديث أو سافر فى طلب المعاش أو تزوج فقد ركن إلى الدنيا .

وروى عنه أبو نعيم[٢] قوله : « ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك وغيرك يفت لك ، ولكن أبدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد » .

ويتخذ ذو النون من طلب العارف المعاش دليلا على أنه لاشىء[٣] .

كذلك الأمر عند أبى تراب النخشبى ، فقد ذكر القشيرى « أنه نظر إلى صوفى من تلامذته قد مد يده إلى قشر البطيخ ، وقد طوى ثلاثة أيام ، فقال له : تمد يدك إلى قشر البطيخ أنت لا يصلح لك التصوف ، ألزم السوق » .

ويظل الأمر على مثل هذا التشدد . ثم يبدأ فى التراخى ، ويعود إلى شىء من الاعتدال بعد ذلك ، ولعله يبدأ عند سهل التسترى « التوكل حال النبى صلى الله عليه وسلم ، والكسب سنته ، فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته[٤] » .

---

(١) تلبيس إبليس ص ٢٨٥ .

(٢) الحلية : حـ ٩ ص ٣٦٤ .

(٣) السراج : اللمع ص ٢٦١ .

(٤) القشيرى : الرسالة ص ٨٤ :

من هذا يتبين أن مسألة الكسب والسعى فى طلبه كانت من المسائل التى شغلت جانبا من الفكر الصوفى ، وكان لها تأثير واسع المدى فى الجماهير المسلمة ، لا نزال نلمس آثارها فى المجتمعات الإسلامية .

وقد تركت مختلف الأقوال فى هذا المجال بصماتها واضحة على الطوائف التى تمسكت بها ، وسادت منها فى مراحل التاريخ المختلفة نغمات ذات إيقاع خاص فى وجدان الشعوب وتصرفاتها .

ولقد يؤسفنا أن نرى بعض هذه الأقوال كانت تؤخذ فى كثير من الأحيان متكأ لمعظم أدعياء التصوف ، حيث يفهمونها فهما سقيما ، ويشيعونها بين العامة دون تقدير لتأثيرها مما تسبب فى تكوين عامل من عوامل التثبيط والإنحلال .

كما استغلها أسوأ استغلال من اندسوا بين صفوف الأمة الإسلامية من المستعمرين وأذنابهم ، بإشاعة جوانبها السلبية السيئة من ناحية ، واتهام الإسلام بأنه دين التواكل والكسل والبطالة ، والمسلمين بالتراخى والاتكالية وعدم المبالاة ، وتشويه صورة الإسلام والمسلمين ، فى عين المسلمين أنفسهم خاصة من يستقون ثقافتهم ودراستهم من أساتذة غربين ، ثم فى عين غيرهم من الأمم الأخرى التى كان ينتظر منها أن تميل بفطرتها إلى هذا الدين . وترتب على ذلك تنفيرهم من الإسلام بغير علم ، وتنفيرهم من المسلمين كما يبدون فى مظاهرهم وسلوكهم وتصرفاتهم .

وإذا كانت هذه المسألة بهذا الموضع من الخطورة — في عصرنا — فقد كانت على مستوى مماثل من الخطورة عند أوائل المتصوفة .

هذا والرسالة التي بين أيدينا للحكيم الترمذي ، مخصصة لمعالجة هذه المسألة يدل دلالة واضحة على مدى أهميتها منذ البداية ، كما يدل على أنها كانت قد أسيء استغلالها في هذا الوقت المبكر من كثير من أدعياء التصوف ، كما أسيء فهمها وإدراكها لدى من نقل عن كبار الصوفية .

وقد ألقى ذلك على أئمة هذا الميدان، وعلى العلماء بصفة عامة، مسئولية البحث والتفصيل والبيان لإزالة مالابسها من لبس ، وما أحاط بها من غموض وما نابها من تأويل وتحريف .

وتعتبر رسالة الحكيم في هذه الناحية وثيقة تاريخية تبرهن بما لا يدع مجالا للشك أن أئمة التصوف برءاة من إساءة الفهم الذي جعل من هذه القضية سلاحا يوجه إلى التصوف والمتصوفين .

كما تعتبر فيصلا شافيا للحكم فيها حتى إن ابن الجوزي البغدادي المتوفى عام ٥٩٧ — وموقفه معروف بالتشدد بالنسبة للتصوف وأهله — لم يستطع أن يبرهن على وجهة نظره في هذه القضية بأكثر أو بأدق مما أتى به الحكيم، وإن زاد عليه الحكيم بتلك السبحات الصوفية العالية .

ويوجد أصل هذه الرسالة في المخطوطة المحفوظة بدار الكتب الوطنيه الظاهرية تحت رقم ١٠٤ ، وقد سبق ذكرها ووصفها في مقدمة الرسالة السابقة بعنوان « آداب المريدين » وهي تحتوي على خمس رسائل كلها

للحكيم الترمذى ، وتقع رسالة « بيان الكسب » ثالثة فى ترتيب هذه المخطوطة بين الرسائل الخمس ولا نعرف لها نسخة أخرى .

وقد حصلت على نسخة مصورة من هذه الرسالة من معهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية .

ووضعت عناوين فصولها بين أقواس معقوفة إشارة إلى أنها ليست من وضع الحكيم الترمذى وإنما هى من وضعى تيسيرا على القارىء فى حصر الموضوع .

وإذا كان صوت الحكيم يأتينا بهذه الرسالة من خلف ألف عام أو يزيد فإنه يتفق تماما مع صوت ابن عطاء الله السكندرى (٧٠٩ هـ) ، ويتجاوب معه فى تناسق كامل فى حكمة قصيرة من حكمه جمعت خلاصة الموضوع من أطرافه كلها ، وقد جعلها ابن عطاء فى صدر حكمه فقال :

إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب ، من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد ، إنحطاط عن الهمة العلية .

وكذلك فى كتابه الرائع البديع « التنوير فى إسقاط التدبير » .

وكما هو الشأن الآن حيث ترتفع الأصوات بالشكوى من هؤلاء المتعطلين المتسكعين — باسم التصوف — حول المساجد والأضرحة والمشاهد المباركة لا يعملون ، ولا يضطربون بالسعى على أرزاقهم ومعاشهم متظاهرين بالتنسك والتعبد ، ومدعين للزهد والتوكل ومكتفين بما تسوقه

القلوب الرحيمة ، أو النفوس الساذجة إليهم بما قل أو كثر ، فيصيرون عالة على أبناء دينهم، ووصمة عار فى جبين أهلهم ووطنهم، وسبة للتصوف والمتصوفين ، وللإسلام والمسلمين ، كذلك كان الشأن فى وقت الحكيم ، فقد جاءته نفس الشكوى ، بأن « قال له قائل : إن بعض المقبلين على أمر الدين تركوا الطلب وقالوا : قد ضمن الله الرزق ، وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرزق ليطلب العبد كما يطلب أجله ، وقال تعالى جده « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لايحتسب » . (الطلاق ٢و٣) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ها لولم تأتها لأتتك، فقعدوا ينظرون الرزق ، ووفاء الضامن لهم بذلك .

ومن هنا تبدأ القضية .

إن هؤلاء يعتمدون على بعض النصوص القرآنية والنبوية التى تؤكد أن رزق المرء لايجاوزه ولا يقصر دونه ، وأنه كالأجل لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص وأنه مامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، وأنه من أجل ذلك كله مضمون مكفول ، تكفل به رب العزة ، وتوصل هؤلاء من وراء ذلك إلى أن العمل لاقيمة له ، وأنه ليس له تأثير حقيقى فى اكتساب الرزق ، وبالتالى . فإنه يستوى من يعمل ومن لايعمل ، فما الداعى لإتعاب النفس والبدن ، وما المانع من الكسل وإيثار الراحة ؟ . وانطلقت القصص ، وضربت الأمثال ، وراجت مثل هذه الأحاديث بين العامة ، حتى آتت ثمرتها المرة المتمثلة فى صورة من أشد صور التطرف حيث أصبحت نظرة التقدير بعمق الإيمان وقوته وكماله

تزداد كلما أمعن الدعى فى ترك الكسب . وإطلاق شعارات التوكل على الله وآيات القرآن الخاصة بالرزق وضمانه ، والتشدق بالأحاديث النبوية ، مع إهمال تام للمظهر والنظافة والذوق العام باسم الإمعان فى التوكل ، فأصبح التوكل إهمالا وعدم مبالاة ، وأصبح الزهد كسلا وبطالة ، وأصبح النظر إلى ضمان الله وكفالته نظرة إلى ما فى أيدى الناس وأرزاقهم .

فهل تؤدى النصوص الدينية — قرآنية ونبوية — حقا إلى كل هذه النتائج التى يتوصل إليها هؤلاء ؟!!

لا شك أن فى الأمر سقما ، ولا يمكن أن يكون ذلك متوجها إلى الدين فنصوصه متكاملة ، لا يستغنى بإحداها عن الأخرى بل لا بد أن يكون السقم فى فهم هؤلاء لهذه النصوص . واختيارهم لبعض النصوص التى تتفق مع أهوائهم ، وإغفال النصوص الأخرى التى يعتدل بها الميزان ؛ والعامة فى غفلة عن ذلك فيصدقون ما يلقى إليهم من هذه الأقاصيص . ويتأصل الداء ويستشرى ويصبح علاجه صعبا مستعصيا .

مما حدا بالحكيم إلى أن يصدر بيانا للناس يعالج فيه هذه المسألة باسم بيان الكسب .

وإذا كان السؤال الذى وجه إلى الحكيم قد اتخذ هذه الصورة المتحيزة ، والتى توصل السائل إلى غرضه وهواه ، فقد أراد الحكيم أن يبدأ المسألة من أصولها ، ويضع لها المقدمات الضرورية التى تجعل الجواب الصحيح المتوازن قريبا ميسورا .

فهل صحيح أن ضمان الرزق من الله تعالى يستتبع بالضرورة أن لا يكون للعمل والكسب دخل فى تحصيله ، أو فى وصوله إلى صاحبه ؟ ؟

وهل صحيح أنه يوجد من البشر من يتولى الله إيصال رزقه إليه دون كد أو سعى ؟؟

وهل كان ذلك هو موقف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم صفوة البشر ، وأقرب الخلق إلى الله ؟؟

وهل صحيح أن الكد فى طلب الرزق يتنافى مع الزهد ومع التوكل على الله ؟ ؟

وهل صحيح أن السعى والاضطراب فى طلب المعاش دليل على فقدان الثقة فى ضمان الله ، مع ما أقسم الله عليه فى قوله تعالى : « وفى السماء رزقكم وما توعدون ، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » (الذاريات ٢٢و٢٣) .

وإذا كان الأمر كذلك فلماذا افترض الله علينا أن نضرب فى الأرض ، ونسعى فى مناكبها ، وننتشر فى نواحيها من أجل أن نكتسب أرزاقنا ؟؟

وهل يسقط هذا الفرض بمجرد التزهد وإدعاء التوكل ؟

ومتى يمكن أن يسقط هذا الفرض ؟؟

وهل أسقط الأنبياء — وهم قدوة البشر — هذا الفرض عن أنفسهم ؟ ؟

ولمن يكون تيسير الرزق إن لم يكن للأنبياء الصالحين ؟ وأكثرهم كان يكابد الجوع والحرمان .

فما هو هذا التيسير ؟ وما هو معناه ؟؟

إلى غير ذلك من المقدمات التى عالجها الحكيم فى بيانه ، بحيث تسلم قارئها إلى النتيجة الصحيحة فى يسر وسهولة ، وتبين خطأ السائل ومن وراءه من المتنطعين وأصحاب الأهواء .

لقد ذكر الحكيم كيف بدأ الكسب بآدم عليه السلام ، وهو أبو البشرية جمعاء فقد كان فى الجنة مرفوع المئونة ، مكفيا من الطعام والشراب والكسوة والمسكن حسب تعهد الله تبارك وتعالى له بقوله : « إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » (طه ١١٨و١١٩) .

فلما خرج من الجنة توقف هذا التعهد ، وأصبح عليه أن يتعب فى تحصيل هذه الأربعة تحقيقا لقوله الله تعالى : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » (طه ١١٧) .

ويتبين من ذلك أن الطاعة تيسر هذه الأربعة ، وأن الخروج من الطاعة يكلف المرء مشقة السعى فى سبيلها ، فكلما كان العبد أطوع لربه كانت مئونة هذا المعاش عليه أيسر .

وإذا وصل الإنسان إلى مرحلة تكون حياته كلها طاعة لله بحيث يذهله الإشتغال بربه فى عبادته عن نفسه ، وعن التدبير لها ، والنظر فى شأنها ، لم يبعد حينئذ أن يتولى الله تعالى إيصال ما كتبه له من الرزق

على الكفاية بلا مئونة ولا كد ، ذلك لأن مخاطبته حينئذ بالسعى والكد تكون مخاطبة لمن لا يعى لها معنى .

وقد ذكر الله لنا شأن مريم عليها السلام عندما صارت محررة من أمور الدنيا فارغة للعبادة ، فقد كانت « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » (آل عمران ٣٧) وقد كانت مريم عليها السلام صديقة قانتة وصفها الله بقوله « وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » (التحريم١٢) .

وهؤلاء هم أهل اليقين ، لا تضطرب عليهم نفوسهم ، ولا تطمع فى غير مطمع ، وقد ركنوا إلى موعود الله ، قل أو كثر ، زاد أو نقص ، أسرع أو أبطأ ، على أى صورة ، وعلى أى كيفية ، فلم يشغلهم شأن الرزق عن عبادتهم ، ولم تلههم مطالب النفس عن مطلب قلوبهم ومهوى أفئدتهم .

ولكن الناس ليسوا جميعا من أهل اليقين ، لهذا افترقوا أمام وعدالله فى شأن الرزق ، وضمانه إياه ، وأكثرهم لم تسخ نفسه بالسكون إلى ذلك واضطربت ، لأنها لم تعرف كميته ولا كيفيته ولا وقته ، وفيها شراهة وحرص وطمع ، لهذا كانت تحتاج إلى ما يجعلها تسكن وتهدأ وتستقر .

من أجل هذا وضع الله طلب المعاش رحمة للناس ، حتى تسكن نفوسهم إلى الوقت الذى يصل إليهم ، لأن النفس إذا احتاجت طمعت إلى من فى يده الفضل فإن نالت منه لم تسلم من الغفلة عن الله ، وإن منعها وجدت عليه وجدا شديدا لأن يقينها لم يبلغ بها إلى الحد الذى ترى فيه قدر الله ، فيكون العطاء فتنة ، ويكون المنع فتنة .

لهذا علق الله الأرزاق بسعى المرء ، فإن حصل كان ذلك معلقا بسعيه فلا يرى المنة فيه لغير الله عز وجل ، وإن فشل كان ذلك معلقا بسعيه ، فلا يعود باللائمة على غيره ، ولا يكتسب عداوة ولا حقدا ولا بغضاء.

وسبب آخر يستدعى تعليق الأرزاق بالمكاسب ، هو أن الله أثبت الأرزاق فى اللوح على المقدار الذى يريد ، وقد لا يوافق هذا التقدير رغبة النفس وشهواتها ، سواء من ناحية الكمية أو الكيفية أو الوقت ، فلو لم يعلق الرزق بالتماس الأسباب ، لأصبحت النفس عرضة أن تسخط على المقدور ولا تراه حسنا ، فعندما علقت الأرزاق بالأسباب والسعى فى الاكتساب ، أصبح توجه الإنسان بالرضا أو بالسخط إلى سعيه واكتسابه دون قدر الله وقضائه ، وتجنب بذلك فتنة خطرة لا تؤمن عقباها .

« من ذلك يتبين أن الأرزاق مثبتة فى اللوح على المقدار الذى يريده

الله ، وعلى الكيفية التي يريد ، وفى الوقت الذى يريد ، ولا بد من وصولها على ما هى مثبتة عليه فى اللوح ، لا يستأخر بها تعود ، ولا يستعجلها طلب ، ولكن الله جعل تحصيلها فى هذه الحياة مبنيا على السعى والطلب . رحمة بعباده ، وعلما منه بأن النفوس بعامه لا تحتمل غير هذه السنة . من حيث إنها لا تطمئن ولا تسكن إلا إلى ما فى يدها ، فإذا لم تجد فى يدها ، وقيل لها : انتظرى ما يأتيك من الغيب لم تهدأ ولم تستقر ، لما فيها من طمع وحرص ، فهى تريد قدرا معينا بكيفية معينة فى وقت معين ، حتى تشبع شهواتها ، وتحصل على لذائذها ورغائبها .

فإذا تأخر عما أرادت وقتا قليلا قلقت واضطربت ، ونظرت ذات اليمين وذات الشمال ، لضعف يقينها ، وسوء ظنها .

وإذا جاء دون ما قدرت كمية أو كيفية نظرت إلى من بسط له نظرة غيرة وحسد . لطمعها وحرصها ، فإذا أعطيت أو منعت أصبحت عرضة للفتنة بأن لا ترى العطاء والمنع من الله صاحب المنع والعطاء .

لذلك لم يكن بدلها من التماس رزقها بنفسها من وراء الأسباب التى وضعها الله لذلك ، حتى إذا نالت ما كتب لها من الرزق ، ولم يكن حسبما اشتهت أو قدرت . عادت باللائمة على نفسها ، وعلى عجزها فى سعيها ، فلا تكون عرضة لأن تسخط على المقدورة، أو تنظر إلى من فضل عليها نظرة ملق أو اغترار » .

وابتداء من هذا المستوى تتدرج مستويات العباد فى اليقين والزهد والتوكل ، فمستوى عباد أيقنوا بوعد الله واطمأنوا إلى ضمانه ، لكن رغائبهم مشوبه ونفوسهم حية بشهواتها ، يكبتونها كبتا بثقل يقينهم ، فلا يؤمن عليهم إلا أن يجروا على سنة الله لعباده فى طلب الرزق تسكينا لنفوسهم حتى لا تنقض عليهم ، فى حاجة دائمة إلى التعليل والحراسة .

ومستوى أعلى من ذلك لا يحتاج إلى كل هذا العناء ، لأن نفوسهم قد إستسلمت لإرادة باريها ، فيستوى لديهم ما يحصل لهم من أرزاقهم بأى قدر ، وفى أى وقت وعلى أى كيفية ، ومع ذلك فهم يلتمسون رزقهم من وراء الأسباب امتثالا لأمر الله ، واتباعا لسنته فى خلقه ، منتظرين ما يخرج لهم من حجب الغيب ، فلا يتعلقون بحقيقة الأسباب ، ولا ينظرون إلى ظاهر هذه الأسباب ، ولكنهم يتعلقون بولى الأسباب ، ويوجهون أنظارهم إليه .

أما الذى غاب فى عبادته عن نفسه وعن الدنيا وعن الرزق وعن أسبابه فمثل هذا لا يخاطب ، بلا تصلهم أرزاقهم بمحض فضل الله عليهم ، إذ أن هؤلاء يستوى لديهم ما يكون بسبب وما يكون بغير سبب ، كما يستوى عندهم ما غاب وما حضر .

ومع أن ذلك واضح ، فإن المرسلين ، وهم آية الخلق وقدوتهم ، كانوا يبتغون أرزاقهم بالكسب والسعى ، فروى لنا فى الخبر أن ادريس

عليه السلام كان خياطا ، وكان نوح صلى الله عليه وسلم نجارا ، وهود صلى الله عليه وسلم عربيا تاجرا ، وصالح صلى الله عليه وسلم عربيا تاجرا ، وشعيب (فى الأصل : شعيبا) صلوات الله عليهم أجمعين عربيا تاجرا وموسى صلى الله عليه وسلم راعيا ، وداود صلوات الله عليه وسلامة زرادا ، وكانت مريم تغزل الشعر والصوف ، وتكسو نفسها (هى) وعيسى صلوات الله عليهما ، وكانت حواء عليها السلام تغزل الشعر والصوف وتنسجه . وكان نبينا صلى الله عليه وسلم راعيا » .

ولقد روى الحكيم الترمذى من أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم فى نفسه وفى صحابته ، ثم روى من أحاديثه العامة ، ومن أخبار الصحابة والتابعين ما يؤكد اتجاهه إلى إلتزام السنة الطبيعية التى سنها الله لعباده ، من السعى فى طلب الرزق . مؤكدا بذلك أن كبار الناس وأرفعهم رتبة ومقاما والذين جعلهم الله آية لعباده لم يخالفوا هذه السنة ، ولم يتجافوها .

ولكن شتان بين طلب وطلب ، وشتان بين سعى وسعى .

فإن طلب المخلطين والصادقين ليس كطلب الصديقين .

وطلب الصديقين ليس كطلب المقربين .

وطلب الأولين مع حرص وطمع ، فقلوبهم بذلك مثقلة ، وأبدانهم مرهقه ، ونفوسهم قلقة مضطربة .

والصديقون يعللون أنفسهم ويدارونها بهذا الطلب ، حتى تهدأ وتستقر وأن كانوا على يقين بوفاء الضامن لهم بما ضمن .

أما المقربون فقد ارتفع عنهم الاهتمام بذلك كله ، ولم يكن لهم همة إلا ربهم وخالقهم ، فكان سعيهم وطلبهم فى روح وراحة ، قد يسرت لهم أرزاقهم ، وهيئت لهم أسبابها ووسائلها .

ولو استغرقهم الله عن أسبابه جملة لأوصل إليهم أرزاقهم دون ما سعى منهم ولا طلب ، فالأولون يطلبون أرزاقهم من جهة الضمان ، والآخرون ينتظرونه من غير جهة الضمان ، ولكن من باب البر والرحمة والامتنان .

ولقد ضرب الحكم لذلك مثلا برجل وله عبد ، ولعبده أبوان ، فذهب هذا السيد ، فوضع ألف درهم على يد رجل بر تقى ، وفى فاضل ، لينفق على عبده فهذا العبد ، وإن وثق بهذا البر التقى ، وسكن قلبه على وفائه ، اضطرب قلبه خوفا على وفا (د) منيته وشهوته ، وأن لا يوافق أجراؤه عليه ، وتدبيره فى أجرائه محبة هذا العبد .

فلو أن هذا السيد وضع هذه الدراهم على يدى أبوى هذا العبد سكن قلبه ، واطمأنت نفسه ، لعلمه برأفة أبويه ، ورحمتها عليه ، فسكنت نفسه من الوجهين جميعا من الوفاء برزقه ، ومن قبل كيفية الرزق .

والأول سكن قلبه من قبل الوفاء ، ولم يسكن قلبه من قبل الكيفية ، فتلك الحزازة باقية ، والحيرة كائنة ، والوساوس داخلة .

ثم بين مطابقة التشبيه بقوله :

« فالزاهد يتناول رزقه من الثقه والضمان ، لأنه لم يتصل به والعارف يتناول من الكرم والرأفة والرحمة ، حسن ظنه به من الثقة . لأنه (فى) مقام الاتصال ، فاتصاله بخالقه أكثر من اتصال هذا الولد بأبويه ، وأين يقع اتصال الولد من اتصال العبد بمولاه ، إذا مكن له بين يديه »(١) .

ويمكننا الآن ، بعد أن أدركنا هذا الاتجاه ، أن نقدر ماذا يكون جواب الحكيم على السؤال الذى وجه إليه بشأن بعض المقبلين على أمر الدين ، الذين تركوا الطلب وقالوا : قد ضمن الله الرزق .

فهؤلاء ـ ولا شك ـ قد وضعوا أنفسهم فى غير موضعها واستشرفوا إلى منزلة لم يستعدوا لها ، ولم يكونوا ـ بعد ـ من أهلها ، فأصبحوا عرضة للفتنة ، حيث يأخذون بمقتضى اليقين نفوسا لم تعمر بعد باليقين ، ويتغافلون عن أطعامهم وشهواتهم ، وهم فى أعماقهم إليها متشوفون .

فهم فى الظاهر كسل وبطالة . وفى الباطن حرص وجزازة .

لذلك أجاب الحكيم بقوله « قعدوا أو أقعدوا ؟ وإن كانوا قعدوا ينبغى لهم أن يقوموا ، أن يطلبوا تحرزا من الطمع وفساد القلب ، وتحصنا من فتنة النفس أن تحمله الحاجة على تناول الشبهة ، والتذلل للأغنياء ، فإن لم يفعل أبغضهم » .

---

(١) جواب الحكيم الترمذى : كتاب من الرى ص ١٧٤ — ١٧٥ .

ثم بين أن ذلك القعود ليس فى الواقع إقبالا على أمر الدين ، أو تفرغا للعبادة بل هو انصراف عن أمر الدين وهروب منه لأن الجهاد فى طلب الحلال من أفضل العبادات فهو يقطع به الطمع عن نفسه ، ويتحرى فيه الورع والتقوى .

ثم هو بعد ذلك يتخلق بأخلاق الكرام ، عند ما يتعامل مع الناس على ما أمر الله وسن رسوله .

ثم هو ينفق على نفسه وعلى أهله من فضل الله الذى آتاه .

ثم هو بعد ذلك جدير أن يفضل من القليل الذى يكتسبه لصلة رحم ومواساة يتيم وعطف على الفقير والمسكين والأرملة.

« فأى عبادة أفضل من ذلك ؟ هل يدانيه صوم أو صلاة ، أو شىء من أعمال البر ؟ » .

والحكيم يشير بكل ذلك إلى ما فى السعى لطلب المعاش من المصالح النفسية والفردية والاجتماعية التى ينبغى عليها كثير من نواحى الحياة العامة وعلاقاتها .

على أن قعود المرء عن الطلب والكسب قبل استقرار النفس باليقين ليس قاطعا عن سبيل الله فحسب ، بل فيه خاطر وآثام لأنه مسئول عن حق الأهل والزوجة والولد ، واعتذاره بأن رزقهم على الله مغالطة ، لأنه لا يدرى على أى كيفية ضمن الله لهم أرزاقهم، وقد حكم فى تنزيله بقوله، وعلى

المولود له رزقهن وكسوتهن (البقرة ٢٣٣) وقال فى شأن الرضاع فآتوهن أجورهن (الطلاق ٦) ، فهذا تارك للسبيل والسنة . يعيش فى عناء ، ويموت ظالما طامعا قاطعا للحقوق على أهله ، وقد روى عن رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت فهو مكلف إذن بالسعى للحصول على رزقه وأرزاقهم ، وتركه السعى لذلك ترك لما كلف به .

ثم هو فى وقت انقطاعه وقعوده تمده نفسه إلى النظر إلى مافى أيدى الناس ، لأنها لم تعمر بعد باليقين فيما عند الله ، وتميل به لمن أكرمه بالنوال والعطية ، فينصرف إلى الأسباب ، وهو يدعى تركها مع شعور الذلة والطمع ، وكفى بذلك إثما .

وربما تعلل بعض هؤلاء بفساد المكاسب ، وندرة الحلال ، وذهاب الأمانة بين الناس .

وقد ناقشهم الحكيم بقوله « فأنتم الهراب من مجاهدة النفس ، فكيف يصلح من هرب من مجاهدة النفس : والشدة ومقاساة الغموم فى دين الله » ثم يعلق عليهم بقوله « فقعد هذا بغليان مرجله ، وهواه المظلم ، فقال : أنا أبتغى من الله حتى يرزقنى كما ضمن ، فما يدريك كيف ضمن ؟ وإنما ضمن الأرزاق جملة ، فمنها فى يسر وراحة ومنها فى عسر وشدة ، فكيف تخطيت إلى الراحة دون الشدة ؟ (٢٣٨) » .

فهم قوم آثروا الراحة على الشدة ، والكسل على العمل ، والبطالة

على الجهاد ، وتستروا خلف فهم سقيم لآيات الضمان وأخباره ، فكان قعودهم بمشيئة أنفسهم ، وتدبيرا منهم لها لا تبعا لمشيئة الله ، ولا انتظاراً لأمره وتدبيره . أما الذين أقعدوا فقوم كان سبيلهم منذ تابوا ما وصفنا من الجهد فى حفظ الحدود مع الله فى طلب المكاسب ، وركبوا صعاب الأمور ، ودققوا النظر ، فتورعوا عن كثير من الحلال مخافة الشبهة .. فهؤلاء قوم على سبيل الصدق والوفا (د) ، يتقون ما حذرهم ، ويؤدون حقوق أهل التبعة ، ويحفظون الجوارح فى ذلك ، فكل هذه فروض يؤدونها ، ثم بعد ذلك تنقلوا بأن وأسوا الإخوان وتعطفوا على الأرملة واليتيم ، ووصلوا الأرحام ، ومع ذلك أطاعوا الله فى سائر الأمور . . . فهداهم ، وأصطفاهم ، وقبلهم . فشغلهم بنفسه ، فهم المحررون عتقاء الرحمن من شهوات النفوس ولذاتها ، لأن القلب إذا شغل بشىء ذهل مما سواه فكيف إذا اشتغل برب الأشياء ، ففتح الله على قلوبهم من ملكة مانسوا فى جنبه كل مذكور .

فالحكم الترمذى لا يقبل فهم آيات الضمان وأخباره فهم الكسالى والمتنعطين ، ولكن على أساس ما كلف الله به العباد من التماس الأسباب والسعى والإكتساب ، للحصول على ما ضمن لهم من الرزق ، فذلك هو تدبير الله لهم ، ومن لم يتبع تدبير الله فهو متبع لتدبير نفسه .

وهو يبين أن الناس مراتب فى التماس أرزاقهم ، وفى فهمهم لضمان الله لها ، وأن أيسرهم مئونة فى تحصيل الرزق هم أكثرهم لله طاقة ، وأن

اليسر ليس هو الكسل والبطالة وراحة البدن ، ولكن أطمئنان النفس وراحتها ، بسبب ثقتها بضمان مولاها .

ثم هو يفتح مجالا واسعا للقول بالإنقطاع عن طلب الرزق ، أو بالتجريد ، كما يسميه ابن عطاء الله السكندرى فى حكمته التى صدرنا بها هذه المقدمة .

ولكن ذلك عنده مقصور على هذه الطبقة العليا من الأولياء الذين جعلوا هومهم هما واحد . فأشتغلوا بربهم وحده ، حتى نسوا فى جنبه كل شىء سواه ، بما فى ذلك نفوسهم .

وانما يسوق الرزق من غير مئونة وطلب إلى من نسى الرزق وذهل عنه . شغلا بربه ، وإلى من وثق به فى الرزق من غير جهة الضمان ، لأنه لما عرفه برا لطيفا ، وبه رءوفا رحيما ، وعرفه حنانا وبنانا وعرفه بالمعروف ، وكرم الصفح ، وكرم المعاملة ، وجود العطايا ، وأستقرت هذه المعرفة فى قلبه ، أمله بخير الدنيا والآخرة . فعظم أمله ، وحسن ظنه به ، وأستحى منه أن يضطرب قلبه عليه من سوء الظن به ، فأمن خوف فوت الرزق ، أو إتعابه فيه ، فوفى له بذلك . وبهذا يتضح كذلك مدى الصلة بين التوكل والسعى . وهل يوجد بينهما تعارض كما يحاول هؤلاء الأدعياء أن يوهموا السذج والبسطاء ، وينخروا بذلك فى عظام الأمة الإسلامية وفى هيكلها وعصبها العملى والاقتصادى .

إنه لا يوجد أى تعارض ـ على أى وجه وبأى مقياس ـ بين التوكل على الله وبين السعى فى طلب الرزق وعمارة الكون .

بل إن التوكل على الله لا يتم إلا باتباع سنته فى كونه ، والتماس الأشياء من الأسباب التى وضعها بحسب علمه وحكمته ، والخروج على ذلك خروج عن محيط التوكل ، ولو كان تحت شعار التوكل ، وتمرد على الله ، وتحكم فى شئونه حيث نبتغى منه ما نريد حسبما نهوى ونريد ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى الله ؟!

وليس هذا شأن الصالحين والمتقين ، ولا شأن الزاهدين والموقنين ولا شأن العارفين والواصلين ، ولا شأن الأنبياء والمرسلين .

أفليس لنا فيهم أسوة حسنة وقدوة صالحة ؟ « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » .

وعلى الله قصد السبيل وله الحمد فى الأولى والآخرة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

كتاب
بيان الكسب

من كلام الشيخ الإمام أبي عبد الله
محمد بن علي الحكيم الترمذي
رحمه الله



(٢١٩) بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو عبد الله ، محمد بن على الترمذى ، رحمه الله :

أول من ندب إلى المعاش

أما شأن المعاش ، فأول من ندب إلى ذلك ودبره آدم عليه السلام ، وذلك أنه حذر من إبليس حين أدخل الجنة ، فأعطى فى الجنة أربعا ، وقيل له : « يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى »(١) فأعطى هذه الأربع فى الجنة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن ، ورفع عنه مؤنتهن ، وقيل له : « فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » بطلب هذه الأربعة . أى : تتعب ، وإنما هى شقاوة البدن .

وجوب نفقة المرأة على الزوج

ومن ههنا استدللنا أن نفقة المرأة على الزوج واجبة ، وهى هذه الأربعة ، فإنه أضاف العداوة من إبليس لهما ، وكذلك الإخراج من الجنة ، والشقاوة فى طلب المعاش أضافه إلى آدم صلى الله عليه وسلم ،

---

(١) سورة طه آية : ١١٨ — ١١٩ .

فدل إفراد ذكره للشقاوة أن السعى على الزوج[١] ، ثم نطق الكتاب في شريعة هذه الأمة بوجوبها على الأزواج[٢] .

من كان لربه أطوع كان رزقه أيسر

(٢٢٠) فلما أخرج من الجنة ابتلى بهذه الشقوة ، فتعبت فيها ذريته أيام الحياة .

فكل من كان من ولد آدم ، عليه السلام ، أطوع لربه عز وجل ،

---

(١) حيث كان الحديث أولا لآدم عنه وعن زوجه قائلا له : « يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك » ثم خاطبهما معا بصيغة التثنية قائلا : « فلا يخرجنكما من الجنة » أما قوله تعقيبا على ذلك « فتشقى » فقد خاطب به المفرد ، وهو آدم عليه السلام ، فكأن الشقاوة في طلب المعاش قد فرضت ـ بحسب الأصل ـ عليه وحده .

(٢) في مثل قوله تعالى « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها » البقرة آية ٢٢٣ ، وقوله تعالى « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » النساء آية ٣٤ ، وقوله تعالى « أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وائتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » الطلاق الآية ٦ ـ ٧ .

وأشد انقيادا له كانت مؤونة هذا المعاش عليه أيسر ، كما كان آدم ، عليه السلام ، لم يبتل[١] بطلب المعيشة إلا بعد ترك الطاعة .

من يأتيهم رزقهم بغير مئونة

وروى مسلم بن جبير[٢] عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لله ملائكة موكلين بأرزاق بني آدم ، قد علموا أرزاقهم على درجاتهم ، ثم قال لهم : أيما عبد من عبادي جعل همه هما واحدا فضمنوا رزقه السموات والأرض وبني آدم ، وأيما عبد طلبه فأعطوه من حيث أراد . فإن تحرى مكاسبه بالعدل فطيبوا له رزقه بعدل ، وإن تعدى إلى الحرام ، فأخذ من هواه (فأعطوه) إلى غاية درجته التي ليس له فوقها ، ثم حولوا بينه وبين سائر الدنيا ، ولا يأخذ من حلالها وحرامها فوق الدرجة التي كتبت له[٣] .

---

(١) في الأصل : لم يبتلى .

(٢) مسلم بن جبير ، ذكر عنه الذهبي أنه يروى عن أبي سفيان وقال : لا يدرى من هو ، وقيل تفرد عنه يزيد بن أبي حبيب .

ميزان الاعتدال رقم ٨٤٧٣ ص ١٠٢ ج ٤ .

راجع تهذيب التهذيب لابن حجر ص ١٧٤ ج ١٠ .

(٣) يوجد في الأصل خدش عند قوله « فأخذ من » ، وقد أضفنا لفظ [فأعطوه] ليتضح المعنى حسبما يدل عليه السياق .

راجع في هذا الحديث كنز العمال ص ١٤ ج ٤ حيث يعزوه إلى الحكيم عن أبي هريرة .

انظر أيضا ابن ماجه في المقدمه باب ٢٣ حديث ٢٥٧ .

وعن زيد بن أسلم[١] ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من تفرغ لعبادة ربه ضمن رزقه السموات والأرض والطير وبنى آدم[٢] .

---

(٧) زيد بن أسلم : مولى عمر [بن الخطاب رضى الله عنه] ذكره الذهبي بأنه ثقة حجة ، وروى عن حماد بن زيد قال : قدمت المدينة وهم يتكلمون في زيد بن أسلم فقال لي عبيد الله بن عمر : ما نعلم به بأسا إلا أنه يفسر القرآن برأيه ، وثقة أحمد وأبو زرعة وأبو حاتم ومحمد بن سعد والنسائى وابن خراش وقال يعقوب بن شيبة : ثقة من أهل الفقه والعلم ، وكان عالما بتفسير القرآن قال خليفة وغير واحد : مات سنة ست وثلاثين ومائة .

ميزان الاعتدال رقم ٢٩٨٩ ص ٩٨ ج ٢ ، تهذيب التهذيب ص ٣٩٦ ج٣.

(٨) روى الحاكم في مستدركه ثنا إبراهيم بن عمرو السكسكى ثنا أبي ثنا عبد العزيز بن أبي راود عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من طلب ما عند الله كانت السماء ظلا له والأرض فراشه ، لم يهتم بشيء من أمر الدنيا ، فهو لا يزرع الزرع ، وهو يأكل الخبز ، وهو لا يغرس الشجر ويأكل الثمار توكلا على الله تعالى وطلبا لمرضاته ، فضمن الله السماوات السبع والأرضين السبع رزقه ، فهم يتعبون فيه ، ويأتون به حلالا ويستوفى هو رزقه بغير حساب عند الله تعالى حتى أتاه اليقين ، وقال : هذا حديث صحيح الآسناد وتعقبه الذهبي فقال : بل منكر أو موضوع ، إذ عمرو ابن أبي بكر متهم عند ابن حبان ، وإبراهيم ابنه قال الدارقطنى : متروك .

انظر ص ٣١٠ ج ٤ كتاب الرقاق من المستدرك .

والتفرغ (٢٢١) لعبادة الله تعالى هو الذى ذكره فى الحديث من قوله : إذا وجد تموه جعل الهم هما واحدا، فهذا عبد قد سقط عنه هم نفسه، فصار عارما [1] لعبادة ربه ، مشتغلا بربه فى عبادته ، وضمنوا رزقه فى السموات والأرض ، فالسماء تمطر ، والأرض تنبت ، وبنو آدم تكفى مئونة العلاج والنقلان والإيصال .

هذا لمن اشتغل بربه فى عبادته ، وذهل عن نفسه . فاستوجب من الله إيصاله إليه على الكفاية بلا مئونة . وهؤلاء (هم) الصديقون .

وقد أنبأ الله عز وجل عن الصديقة مريم ، عليها السلام ، لما صارت محررة من أمور الدنيا ، فارغة للعبادة ، (فقال : « كلما) دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » [2] من غير أن يحتسب من مكان معلوم.

فإذا كان هذا للصديقة فى الكتاب ، فالصديقون من الرجال أحرى أن يرزقوا هكذا .

---

(١) يوم عارم : نهاية فى البرد ، وأمر عارم : شديد ، وخلق عارم : شكس ولعل المعنى أنه قد أصبح مشتدا منهمكا فى عبادة ربه ، بحيث لا يشغل خاطره شىء آخر .

(٢) سورة آل عمران ، آية ٣٧ .

فإن كان رزق مريم ، عليها السلام ، نقلته الملائكة إليها ، جاز أن ينقل بنو آدم أرزاق الصديقين إليهم ، والمؤمنون أكرم على الله عز وجل من الملائكة .[١]

(وهم مع ذلك يطلبون المعاش)

(٢٢٢) وكانت مريم ، عليها السلام ، ممن تطلب المعاش مع هذا ، وتغزل ، ويأكل عيسى ، صلوات الله عليهما ، من غزلها .

وعن مجاهد [٢] رحمه الله فى قوله تعالى : « والطيبات من الرزق »[٣] قال : كد المغزل .

---

(١) يعنى أن نقل بنى آدم أرزاق الصديقين إليهم ليس بسبب نقص درجتهم عن درجة الصديقة مريم ، حيث تولت الملائكة نقل رزقها إليها ، لأن المؤمنين وهم من بنى آدم أكرم على الله عز وجل من الملائكة ، وبذلك يكون نقلهم لأرزاق الصديقين فى مستوى لا يقل إكراما لهم عن مستوى نقل الملائكة .

(٢) مجاهد بن جبر : المقرىء المفسر ، أحد الأعلام الثقات

قال النباتى : ذكر مجاهد فى كتاب الضعفاء لابن حبان البستى ، ولم يذكره أحد ممن ألف فى الضعفاء ، قال : ومجاهد ثقة بلا مدافعة .

قال يحى القطان : مات مجاهد سنة أربع ومائة ، وأجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به .

ميزان الاعتدال رقم ٧٠٧٢ ص ٤٣٩ — ٤٤٠ ج ٣ .

راجع تهذيب التهذيب ص ٤٢ — ٤٤ ج ١٠ .

(٣) سورة الأعراف ، آية ٣٢ ، والآية بتمامها : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

فهذه سنة فى ولد آدم ، أطوعهم له أيسرهم مئونة فى طلب المعاش ، لأن الأطوع هو صاحب اليقين والتقوى ، ومطيع الله بتيسير الله ، ألا ترى إلى قوله عز وجل : « ونيسرك لليسرى »[١] .

(معنى اليسر والعسر)

وإنما هو تيسير البدن أن يأخذ رزقه من وجه الراحة قل أو كثر ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجوع اليوم واليومين ، فكذلك كان رزقه فى التقدير فى اللوح ، ولكن فى يسر وراحة وعافية ، وكذلك الصديقون من بعده .

وإنما التعب والمئونة من الحرص ، وخوف الفوت ، وسوء الظن ، فعمل هذا على القلب أثقل من كل ثقيل ، وبدنه مما جعل على قلبه فى تعب ونصب وعناء .

فصاحب اليقين فى روح وراحة ، أما روحه : فإنه يأخذ من تدبير العرش ، وهو فى نعيم ولذة . وأما راحته : فلأنه بالذى فى (٢٢٣) ضمان ربه أوثق من الذى صار فى يده .

عن أبى أمامة[٢] قال : جاء رجل من الأنصار ، فقال : يارسول الله ، إن فلانا زكى زرعه وربى العام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) سورة الأعلى ، آية ٨ .
(٢) ذكر ابن حجر فى باب الكنى خمسة بهذه الكنية :

وما ذاك !؟ ركعتان خفيفتان يركعهما العبد خير له من الدنيا وما فيها ، ثم أكب على أبي بكر ، رضى الله عنه ، بكلمة يخفيها فقال : لو أنكم تفعلون ماتؤمرون لأكلتم غير زارعين ولا أشقياء (١) .

أبو أمامة أسعد بن سهل بن حنيف الأنصارى ، ولد فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم . قال ابن سعد : كان ثقة كثير الحديث ، ولم يسمع من النبى صلى الله عليه وسلم : قال أبو منصور الباوردى : مختلف فى صحبته ، وقال البخارى : أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يسمع منه .

وأبو أمامة الباهلى ، وهو صدى بن عجلان بن وهب ، صحابى :

قال سليم بن عامر ، قلت له : مثل من أنت يومئذ ؟ يعنى يوم حجة الوداع ، قال : أنا يومئذ ابن ثلاثين سنة .

قال ابن عيينه : هو آخر من مات من الصحابة بالشام :

وأبو أمامة البلوى الأنصارى : اسمه إياس بن ثعلبة ، ويقال : عبد الله ابن ثعلبة قال أبو أحمد الحاكم : رده النبى صلى الله عليه وسلم من بدر من أجل أمه .

وأبو أسامة الأنصارى : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم حديثا فى الدعاء لقضاء الدين .

وأبو أمامة ، ويقال له أبو أميمة التيمى الكوفى .

قال إسحق بن منصور عن ابن معين : ثقة لا يعرف اسمه ، وقال أبو زرعة : لا بأس به .

تهذيب التهذيب ص ١٣ ــ ١٤ ج ١٢ .

(١) روى الترمذى بسنده عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله

هذا كان جوابا لذلك الرجل ، فخاطب بها أبا بكر ، رضى الله عنه ، يخفيها عن العامى ، لأن مثل هذا الكلام كان يفهمه عنه أبو بكر ، رضى الله عنه .

كان أبو بكر ، رضى الله عنه ، يكسب المال لإطفاء فتن النفوس ، ولتقوية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وعمارة الإسلام ، وتعزيز الدين .

(عن) ابن وكيع ، عن أبيه [١] ، عن زمعة بن صالح [٢] ، عن

= صلى الله عليه وسلم : لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير تغدوا خماصا وتروح بطانا .

باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا . ص ٤ ج ٤ بمراجعة عبد الرحمن محمد عثمان

ونحو ذلك فى ابن ماجه باب التوكل والتيقين ، كتاب الزهد رقم ٤١٦٤ .

كذلك رواه أحمد والحاكم . الجامع الصغير ص ١٠٧ ج ٢ .

(١) هو وكيع بن الجراح بن مليح أبو سفيان الرؤاسى الكوفى الحافظ أحد الأئمة الأعلام ، قال عبد الله بن أحمد عن أبيه : ما رأيت أوعى للعلم من وكيع ولا أحفظ منه وكان يقول ؟ كان وكيع حافظا حافظا قال ابن المدينى فى التهذيب : وكيع كان فيه تشيع قليل .

انظر ميزان الاعتدال رقم ٩٣٥٦ ص ٣٣٥ ج ٤ .

وانظر تهذيب التهذيب ص ١٢٣ ج ١١ .

(٢) هو زمعة بن صالح الجندى اليمانى .

أخرج له مسلم مقرونا بآخر .

الزهرى [١] ، عن عبد الله بن وهب بن زمعة[٢] ، عن أم سلمة ، رضى الله عنها ، أن أبا بكر ، رضى الله عنه . خرج إلى تجارة إلى بصرى ،قبل موت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعام ، لأن اشتغاله [٣] بالكسب عن لزوم رسول الله صلى (٢٢٤) الله عليه وسلم .

ضعفه أحمد وابن معين ، وقال ابن معين – مرة – : صويلح الحديث،وقال أبو زرعة : لين واهى الحديث ، وقال البخارى : يخالف فى حديثه ، تركه ابن مهدى أخيراً . وقال النسائى : ليس بالقوى ، كثير الغلط عن الزهرى ، وقال أبو داود : ضعيف .

انظر ميزان الاعتدال رقم ٢٩٠٤ ص ٨١ ج ٢ وتهذيب التهذيب ص ٣٢٨ ج ٣ .

(١) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث ابن زهرة بن كلاب بن مرة القرشى الزهرى أحد الأئمة الأعلام،وعالم الحجاز والشام ، ثقة كثير الحديث والعلم والرواية فقيه جامع .

انظر تهذيب التهذيب ص ٤٤٥ ج ٩ وطبقات ابن خياط ص ٦٥٢ ، والبداية والنهاية لابن كثير ج ٩ ص ٣٤٠ .

(٢) هو عبد الله بن وهب بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى الأسدى . قتل يوم الدار ، ذكره ابن حبان فى الثقات .

(٣) فى الأصل : استعماله ، ومع وضع لفظ « اشتغاله » بدلا منها فإن الجملة لاتزال فى حاجة إلى إيضاح ، ولعل المقصود أن اشتغاله بالكسب كان يمنعه عن لزوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذلك كان أبو بكر رضى الله عنه قليل الخروج للتجارة حتى لا يحرم من ملازمة الرسول صلى الله عليه وسلم .

عن جرير (١) ، عن مغيرة (٢) ، قال : كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يعمل فى مال أبى بكر ، رضى الله عنه ، كما كان يعمل فى مال نفسه ، فلا يتوهم على الصديق ، رضى الله عنه ، أنه كان يكتسب لمعالجة النفس وتطييبها فى شأن الرزق ، كأهل ضعف اليقين .

(طلب المعاش رحمة للناس)

وطلب المعاش رحمة للناس ، لتسكين نفوسهم إلى الوقت الذى

---

(١) لعله جرير بن عبد الحميد بن قرط — بضم القاف وسكون الراء — الضبى لأنه هو الذى يروى عن مغيرة ، نشأ بالكوفة ونزل بالرى .
قال الذهبى : صدوق يحتج به فى الكتب .
وقال ابن عمار : كان حجة ، وكانت كتبه صحاحا .
ميزان الاعتدال رقم ١٤٦٦ ص ٣٩٤ ج ١ تهذيب التهذيب ص ٧٥ ج ٢ .

(٢) ولعله — أيضا — هو مغيرة بن مقسم — بكسر الميم وفتح السين — إمام ثقة ، قال ابن فضيل : كان يدلس وكنا لا نكتب عنه إلا ماقال : حدثنا إبراهيم وقال أبو حاتم عن أحمد : حديث مغيرة مدخول عامة ما روى عن إبراهيم إنما سمعه من حماد ومن يزيد بن الوليد والحارث العكلى وعبيدة وغيرهم ، قال : وجعل يضعف حديث مغيرة عن إبراهيم وحده . وقال العجلى : مغيرة ثقة فقيه الحديث إلا أنه كان يرسل الحديث عن إبراهيم ، وقال النسائى : مغيرة ثقة ، وقال ابن معين : ثقة مأمون .
ميزان الاعتدال : رقم ٨٧٢٣ ص ١٦٥ ج ٤ تهذيب التهذيب ص ٢٦٩ ج ١٠ .

يصل إليهم ، وذلك أن النفس إذا احتاجت طمعت إلى من فى يده الفضل ، فإذا منع وجد على المانع وجداً [١] شديدا ، وليس له من اليقين ما يرجع إلى أن الله عز وجل لم يقدر له ، فيكون ذلك المنع فتنة عليه .

فمنه تعوذ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : أعوذ بالله من طمع يهدى إلى طبع [٢] .

لأنه إذا حصل المنع ، ولا يرى أن هذا المنع من الله ، يجد قلبه على أخيه ، فيطبع على قلبه ، لأنه يغل قلبه على أخيه حتى يعاديه ، فعلم الله

---

(١) وجد عليه ـ بفتح الجيم وكسرها ـ يجد ـ بكسر الجيم وضمها ـ وجدا وجدة وموجدة : غضب . القاموس .

(٢) ذكره ابن الأثير فى « النهاية فى غريب الحديث والأثر » ص ١١٢ ج ٣ وقال : أى يؤدى إلى شين وعيب ، وكانوا يرون أن الطبع ـ وهو بفتح الباء ـ هو الرين وذكره فى الجامع الصغير بهذه الرواية : استعيذوا بالله من طمع يهدى إلى طبع ، ومن طمع يهدى إلى غير مطمع ، ومن طمع حيث لا مطمع وقال عنه إنه صحيح رواه أحمد بن حنبل فى مسنده والطبرانى فى الكبير، والحاكم فى مستدركه .

وقد ذكره الحاكم فى كتاب الدعاء عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : استعيذوا بالله من طمع يهدى إلى طبع ومن طمع فى غير مطمع حين لا مطمع ، وقال : هذا حديث مستقيم الإسناد ، وكذلك عقب الذهبى .

سبحانه هذا الضرر فى ذلك ، فوضع أبواب المعاش ووجوه المكاسب .

(المرسلون ، عليهم السلام ، أسوة فى طلب المعاش)

وبعث الله عز وجل المرسلين آية للخلق .

فروى لنا فى الخبر (١) أن إدريس ، عليه (٢٢٥) السلام ، كان خياطا .

---

(١) وقد يستأنس لهذه الرواية بالنسبة لنوح عليه السلام بمثل قوله تعالى « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » (هود : ٣٧) وقوله تعالى « ويصنع الفلك » (هود : ٣٨) .

وبالنسبة لشعيب عليه السلام بمثل قوله تعالى فى دعوته لقومه « ولاتنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » (هود : ٨٤ ، ٨٥) .

وبالنسبة لموسى عليه السلام بمثل قوله تعالى « وما تلك بيمينك ياموسى ، قال هى عصاى أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى » (طه : ١٧ ، ١٨) وقوله تعالى « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما » (القصص : ٢٣ ، ٢٤) وما يتلو هذه الآيات من آيات أخرى .

وبالنسبة لداود عليه السلام بمثل قوله تعالى « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم » (الأنبياء : ٧٩ ، ٨٠) وقوله تعالى « ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى

. . . .

معه والطير وألنا له الحديد، أن اعمل سابغات وقدر فى السرد » (سبأ : ١٠، ١١)
وقد روى البخارى فى باب الإجارة عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : مابعث الله نبيا إلا رعى الغنم ، فقال أصحابه : وأنت ؟ فقال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة . ص ١١٦ ج ٣ . وروى نحوه ابن ماجه تحت رقم ٢١٤٩ ص ٧٢٧ وروى الحاكم حديثا يتضمن ذلك كله .

وروى الحاكم حديثا يتضمن ذلك عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أنه قال الرجل جالس عنده وهو يحدث أصحابه : أدن منى ، فقال له الرجل : أبقاك الله ، والله ما أحسن أن أسألك كما سأل هؤلاء ، فقال : أدن منى فأحدثك عن الأنبياء المذكورين فى كتاب الله .

أحدثك عن آدم إنه كان عبداً حراثا

وأحدثك عن نوح أنه كان عبداً نجارا .

وأحدثك عن إدريس إنه كان عبدا خياط .

وأحدثك عن داود إنه كان عبداً زرادا .

وأحدثك عن موسى إنه كان عبداً راعيا .

وأحدثك عن إبراهيم إنه كان عبداً زراعا .

وأحدثك عن صالح إنه كان عبداً تاجراً .

وأحدثك عن سليمان إنه كان عبداً آتاه الله الملك ، وكان يصوم فى أول الشهر ستة أيام ، وفى وسطه ثلاثة أيام وفى آخره ثلاثة أيام . وكانت له تسعمائة سرية ، وثلاثمائة فهرية .

وكان نوح ، صلى الله عليه وسلم ، نجارا .
وهود ، صلى الله عليه وسلم ، عربيا تاجرا .
وصالح ، صلى الله عليه وسلم ، عربيا تاجرا .
وشعيب ، صلوات الله عليهم أجمعين ، عربيا تاجرا .
وموسى ، صلى الله عليه وسلم ، راعيا .
وداود ، صلوات الله عليه وسلامه ، زرادا .
وكانت مريم تغزل الشعر والصوف ، وتكسو نفسها (هى)وعيسى، صلوات الله عليهما .

وأحدثك عن ابن العذراء البتول عيسى بن مريم إنه كان لايخبأ شيئا لغد ، ويقول : الذى غدانى سوف يعشينى والذى عشانى سوف يغدينى . يعبد الله ليلته كلها ، يصلى حتى تطلع الشمس ، وهو بالنهار سائح ، ويصوم الدهر كله ، ويقوم الليل كله .

وأحدثك عن النبي المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إنه كان يرعى غنم أهل بيته بأجياد ، وكان يصوم فنقول لايفطر ، ويفطر فنقول لايصوم ، وقلما مارأيناه صائما ، ويصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، وكان ألين الناس جناحا ، وأطيبهم خبرا ، وأطولهم علما .

وأخبرك عن حواء إنها كانت تغزل الشعر فتحوله بيدها فتكسو نفسها وولدها .

وإن مريم بنت عمران كانت تصنع ذلك .

وقد سكت عنه الذهبي .

وكانت حواء ، عليها السلام ، تغزل الشعر والصوف وتنسجه .
وكان نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، راعيا .

ويحقق هذه الأخبار من فعلهم ما نطق به الكتاب ، وذلك أن المشركين عيروا رسول الله . صلى الله عليه وسلم ، فى طلبه المعاش ، وتجارته فى أول نبوته ، فأنزل الله تعالى : «وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي فى الأسواق » ، أى ماله يلتمس المعيشة ، «لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا (١) » ، وقال فى آية أخرى جوابا لهم : «وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق (٢) » أى إنهم يبتغون من الله يطلبون المعاش . (٢٢٦) يخبر عن رسولنا ، وعنهم ، صلوات الله عليهم أجمعين ، أن هذا من فعلهم ، ولم يكونوا يتعجبون من مشيه فى الأسواق لولا أنه لطلب المعاش .

فإن قلت : مشى لابلاغ الرسالة .

(قلت) : فما معنى تعجبهم من ذلك ؟ و (مامعنى) ذكر الكنوز والجنة التى يأكل منها(٣) ؟

---

(١) الفرقان : ٧
(٢) الفرقان : ٢٠
(٣) أى دون أن يحتاج إلى سعى وكد وعمل .
وقد وردت الآيات هكذا : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى

وقد فسر أهل التفسير هذه الآية على تأويل طلب المعاش .

(خير الطعام وأحبه إلى الله)

ثم ما جاءت به الأخبار عن الرسل ، وعن رسولنا ، صلى الله عليه (وعليهم) وسلم .

ثور [١] ، عن خالد بن معدان [٢] ،

فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ، تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا »(الفرقان : ٧ — ١٠) .

(١) ثور بن يزيد الكلاعى أبو خالد الحمصى . أحد الحفاظ عن خالد بن معدان وطائفة .

قال ابن معين : ما رأيت أحدا يشك أنه قدرى ، وهو صحيح الحديث .

وقال ابن المبارك : سألت سفيان عن الأخذ عن ثور ، فقال : خذوا عنه ، واتقوا قرنيه .

وقال عمرو بن على عن يحي بن سعيد : مارأيت شاميا أوثق من ثور بن يزيد .

وقال وكيع : ثور كان صحيح الحديث .

انظر ميزان الاعتدال رقم ١٤٠٦ ص ٣٧٤ ج ١ وتهذيب التهذيب ص ٣٤ ج ٢

(٢) خالد بن معدان — بفتح الميم — ابن أبى كريب الكلاعى ، أبو عبد الله الشامى .

عن المقدام (١) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من الطعام يأكله ابن آدم أحب إلى الله من كسب الرجل بيده ، وإن أخى داود كان يأكل من كسب يده (٢) .

قال العجلى : شامى تابعى ثقة .

وقال يعقوب بن أبى شيبة ومحمد بن سعد وابن خراش والنسائى : ثقة .

وقال الاسماعيلى : بينه وبين المقدام بن معد يكرب جبير بن نفير.

قال ابن حجر : وحديثه عن المقدام فى صحيح البخارى . تهذيب التهذيب ص ١١٩ ج ٣

(١) المقدام بن معد يكرب بن عمرو بن يزيد بن معديكرب .

نزل حمص ، وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن طائفة من الصحابة انظر تهذيب التهذيب ص ٢٨٨ ج ١٠ .

(٢) لعله هو الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده : حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا عيسى عن ثور عن خالد بن معدان عن المقدام رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما أكل أحد طعاما قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده ص ٧٤ ج ٣ .

وتخصيص نبى الله داود عليه السلام بالذكر ، لأنه كان نبيا ملكا ، وحتى لا يتبادر إلى الذهن عند ذكر غيره من الأنبياء أنهم كانوا يعملون لحاجتهم ، فهذا نبى ملك كان يأكل من عمل يده ، لا لحاجته ، ولكن لأنه خير من غيره .

(الحث على العمل والاكتساب)

وعن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : أفضل كسب الرجل كسب يد العامل إذا نصح [١] .

وعن مالك بن دينار [٢] قرأ في التوراة : إن الذي يعمل بيده فيأكل طوبى لمحياه ، طوبى لمماته .

---

(١) روى الحاكم في مستدركه عن أبي بردة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الكسب أطيب ؟ أو أفضل ؟ قال : عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور ، وسكت عنه الذهبي كذلك رواه عن سعيد بن عمير عن عمه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الكسب أفضل ؟ قال : كسب مبرور ، قال الذهبي : صحيح ، قال ابن معين : عم سعيد : البراء . وروى عن رافع بن خديج عن أبيه قال : يارسول الله أي الكسب أطيب ؟ قال : كسب الرجل بيده وكل بيع مبرور ، وقد سكت عنه الذهبي ص ١٠ ج ٢

وقد ذكر في الجامع الصغير أنه قد رواه أحمد في مسنده عن رافع بن خديج ، والطبراني في الكبير عن ابن عمر وعن رافع بن خديج ، وصححه . ص ٣٧ ج ١ .

(٢) مالك بن دينار السلمي الناجي مولاهم أبو يحيي البصري ، من علماء البصرة وزهادها المشهورين .

قال النسائي : ثقة ، وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : كان يكتب المصاحف بالأجرة ويتقوت بأجرته .

وعن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال لنسائه : خيركن أطولكن يدين .

وفى روايه أخرى : أغزلكن ، وكان غزلهن الصوف ،وفى رواية: إنما أعنى أصنعكن يدا . (١)

وعن أنس قال (٢٢٧) : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم لهو الحرة المؤمنة المغزل .

وعن محمد بن خالد الضبى (٢) قال : مر إبراهيم ، رحمه الله ، على امرأة يقال لها أم بكر ، فسلم فردت وهى جالسة وفى يدها مغزل ،فقال لها إبراهيم : يرحمك الله ، أما كبرت !؟ قالت : بلى . قال : أما آن لك أن تضعى هذا المغزل ؟ قالت : وكيف أضعه وقد سمعت على بن أبى طالب ، رضوان الله عليه ، يقول : هى من طيبات الكسب .

أخرج له البخارى من حديث أبان عن عائشة رضى الله عنها حديثا فى العمرة .

انظر ميزان الاعتدال رقم ٧٠١٦ ص ٤٢٦ ج ٣ وتهذيب التهذيب ص ١٤ ج ١٠ وحلية الأولياء ص ٣٥٧ ج ٢ .

(١) ذكر فى الجامع الصحيح رواية أبى يعلى فى مسنده لحديث : خيركن أطولكن يدا ، وصححه ص ١٠ ج ٢ :

(٢) انظر فيه ميزان الاعتدال رقم ٧٤٨٠ ص ٥٣٦ ج ٣ ، وتهذيب التهذيب ص ١٤٥ ج ٩ .

وروى أن زكريا ، عليه السلام ، كان نجارا (١) .

وعن ابن المسيب (٢) : كان لقمان خياطا .

وعن عثمان بن عطا عن (٣) أبيه قال : كان سليمان ، عليه السلام ، يسف (٤) الخوص بيده ، ويأكل خبز الشعير ، ويطعم بنى إسرائيل الخبز النقى واللحم .

وعن يزيد النحوى ، عن عكرمة أن داود ، صلوات الله عليه وسلامه ، رأى فى المنام رجلا معه فى الجنة من أهل السوق ، فجعل يطوف فى السوق ، فإذا رجل معه كارة (٥) من حطب ، يقول : من

---

(١) روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كان زكريا نجارا » كتاب الفضائل ، باب من فضائل زكرياء عليه السلام . رقم ٢٣٧٩ ص ١٨٤٧ . كذلك رواه ابن ماجه فى باب الصناعات كتاب النجارات عن أبى هريرة رقم ٢١٥٠ ص ٧٢٧ .

(٢) انظر فيه تهذيب التهذيب ص ٨٤ ج ٤ .

(٣) انظر فيه ميزان الاعتدال رقم ٥٥٤٠ ص ٤٨ ج ٣ وتهذيب التهذيب ص ١٣٨ ج ٧ .

أما أبوه ففى ميزان الاعتـــدال رقم ٥٦٤٢ ص ٧٣ ج ٣ وتهذيب التهذيب ص ٢١٢ ج ٧ .

(٤) سف الخوص والحصير سفا : نسجه بالأصابع .

(٥) الكارة : ما يجمع ويشد ويحمل على الظهر من طعام أو ثياب .

يشترى طيبا بطيب ؟ فدنا منه ، فقال : ماطيبك هذا ؟ قال : حطب حطبته فلم أظلم فيه أحدا ، فأريد رجلا كسب (٢٢٨) درهما حلالا يعطينى به . فقال : هاك درهما ، احمله معى إلى المنزل ، فحمله ، فلما انتهى به إلى المنزل قال : ما تصنع بدرهمك هذا ؟ قال : ثلثه لوالدى ، وثلثه للمساكين ، وثلثه لى ولعيالى ، فقال : إنى رأيتك معى فى الجنة ، فهذا المحراب لك ولعيالك ولوالديك تجرى عليكم أرزاقكم فكونوا فيه ، فقال: أنت نبى من الأنبياء ، رأيتنى معك فى الجنة ، تريد أن تخرجنى منها (١) ! ! !

وعن ابن عمر ، عن عمر ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أطيب ما أكل الرجل من كسبه (٢) .

وعن عيينة بن حصين (٣) ، رحمه الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آجر موسى نفسه لشبع بطنه (٢٢٩) وعفة فرجه (٤).

---

(١) هذا من القصص الإسرائيلى ، ويبدو عليه أثر الصنعة ، ولا يعقل أن يخاطب نبى من أنبياء الله الكرام بمثل هذا الخطاب التوبيخى من عبد يفترض فيه الصلاح والإخلاص .

(٢) راجع ما سبق فى الحاشية رقم ٣٤ .

(٣) عيينة بن حصن — بضم الحاء وفتح الصاد — ابن حذيفة بن بدر الفزارى ، راجع فى شأنه الاستيعاب فى معرفه الأصحاب ص ١٢٤٩ ج ٣

(٤) روى ابن ماجه فى كتاب الرهون عن على بن رباح قال : سمعت عتبة ابن المنذر يقول : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ : «طسم» حتى =

وبلغنا أن رجلا قال : يارسول الله ، أى المتاجر تأمرنى ؟ قال : عليك بالبز .

وقال لآخر : عليك بالتبن ، فإن رأسماله يسير ، وفضله كثير. فاتجر الرجل بالتبن حتى نما ماله ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله ، إنى سألتك عن أمر ، وأرجو أن يكون الله قد جعل لى فيه البركة ، فمرنى بتجارة أسنى من التبن ، وقال : عليك بالبز ، فإنه مبارك . وهى تجارة أبى إبراهيم عليه السلام (١) ، وذكر الحديث .

وعن عبد الله بن أبى أوفى (٢) ، رضى الله عنه ، أن رجلا أتى رسول

= إذا بلغ قصة موسى قال : إن موسى صلى الله عليه وسلم أجر نفسه ثمانى سنين أو عشراً على عفة فرجه وطعام بطنه، وذكر محققه عن الزوائد : إسناده ضعيف لأن فيه بقية ، وهو مدلس ، وليس له عند ابن ماجه سوى هذا الحديث ، وليس له شىء فى بقية الكتب الخمسة رقم ٢٤٤٤ ص ٨١٧ .

وقد ذكر ابن كثير أن هذا الحديث من هذا الوجه ضعيف تفسير ابن كثير ص ٣٨٥ ج ٣ .

(١) راجع كنز العمال ص ١٩ ج ٤ حيث ذكر رواية الديلمى عن ابن عباس : عليك بالتبن فإن رأسماله يسير وربحه كثير ، وعليك بالبز فإن فيه تسعة أعشار البركة .

(٢) عبدالله بن أبى أوفى الأسلمى، وأبو أوفى هو علقمة بن خالد بن الحارث ابن أسد بن رفاعة بن ثعلبة بن هوازن بن أسلم . وهو أخو زيد بن أبى أوفى =

الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يارسول الله ، ائذن لى فى المسئلة ، قال: اذهب إلى سوق الخياطين ، وقال بعضهم : إذا قدمت رفقة فاشتروا فاشركهم . فذهب الرجل فلم يلبث أن أصاب غلاما وبعيرا ، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، أصبت غلاما وبعيرا ، وإنى قد استغنيت بهما ، وإنى أريد أن ألزمك ، فقال : الزم سوقك .

وروى عن الحسن ، عن أنس قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يد سعد بن معاذ ، رضى الله (٢٣٠) عنه مكببة ، فقال : ما هذا الاكتباب ؟ قال : من ضربى المرو[1] المسحاة فى أرضى ، فقال: ياسعد، أما أنا فأشهد أن هذه يد لا تمسها النار أبدا .

وعن على بن أبى طالب ، رضوان الله عليه ، قال : جعت مرة بالمدينة جوعا شديدا ، فخرجت أطلب العمل ، فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرا[2]

= شهد الحديبية وخيبر وما بعد ذلك من المشاهد ، ولم يزل بالمدينة حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تحول إلى الكوفة ، وهو آخر من بقى بالكوفة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . مات سنة سبع وثمانين ، وقيل سنة ست وثمانين .

(١) المرو : ضروب الصوان ، وحجارة بيض رقاق براقة تقدح منها النار .

(٢) المدر : الطين اللزج المتماسك ، والقطعة منه : مدرة ، وأهل المدر : سكان البيوت المبنية ، خلاف البدو سكان الخيام .

تريد بله . فأتيتها ، فقاطعتها كل ذنوب(١) بتمرة ، فعد ستة عشر ذنوبا ، حتى محلت(٢) يداى ، فأصبت منه ، ثم أتيتها ، فقلت بيدى هكذا بين يديها ، فعدت لى ست عشرة(٣) تمرة ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته ، أكل معى منها .

وعن أنس ، رضى الله عنه ، فى حديث : فأمدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بسبعين من الأنصار ، كانوا يسمون : القراء ، كانوا يحتطبون بالنهار ، ويصلون بالليل(٤) . الحديث .

وعن الحسن ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الذنوب : الدلو العظيمة .

(٢) محل المكان ـ بفتح الحاء وضمها ـ أجدب ، والمقصود أن يديه جفتا وتيبستا من العمل .

(٣) فى الأصل : ستة عشر .

(٤) روى البخارى فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم أتاه رعل وذكوان وعصية وبنو لحيان ، فزعموا أنهم قد أسلموا ، واستمدوه على قومهم ، فأمدهم النبى صلى الله عليه وسلم بسبعين من الأنصار ، قال أنس : كنا نسميهم القراء ويحطبون بالنهار ، ويصلون بالليل ، فانطلقوا بهم حتى بلغوا بئر معونة غدروا بهم ، وقتلوهم ، فقنت شهراً يدعو على رعل وذكوان وبنى لحيان . . . إلخ ص ٨٨ ج ٤ باب فضل الجهاد والسير ، باب العون بالمدد . وانظر أيضاً فى باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان ص ١٣٤-١٣٧ ج ٥ .

التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء[١] .

وعن عمر ، رضى الله عنه ، قال : يا معشر القراء ، ارفعوا رءوسكم فقد وضح الطريق ، استبقوا الخيرات ، ولا تكونوا عيالا على المسلمين .

عن عمرو بن مرة[٢] ، عن (٢٣١) حذيفة ، رضى الله عنه ، قال : خياركم من لم يرفض آخرته لدنياه ، ومن لم يرفض دنياه لآخرته[٣] .

---

(١) رواه الترمذى فى سننه : حدثنا هناد حدثنا قبيصة عن سفيان عن أبى حمزة عن الحسن عن أبى سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء .

ثم قال : حدثنا سويد ، حدثنا ابن المبارك عن سفيان عن أبى حمزة ، بهذا الإسناد نحوه . هذا حديث حسن ، لانعرفه إلا من هذا الوجه ، من حديث الثورى عن أبى حمزة أبواب البيوع ص ٣٤١ ج ٢ .

وقد رواه ابن ماجه بإسناد فيه كلثوم بن جوش القشيرى ، وذكر فى الزوائد أنه ضعيف .

(٢) عمرو بن مرة الجملى الإمام الحجة .

وثقه ابن معين . وقال أبو حاتم : ثقة يرى الإرجاء . مات سنة ست عشرة ومائة ، أنظر ميزان الاعتدال رقم ٦٤٤٧ ص ٢٨٨ ج ٣ ، وتهذيب التهذيب ص ١٠٢ ج ٨ .

(٣) ذكر فى الجامع الصغير رواية الخطيب عن أنس : خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ، ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كلا على الناس . وقال عنه : إنه صحيح .

وعن ابن عمر ، رضى الله عنه ، قال : العبادة عشرة أجزاء ، فتسعة فى الكسب ، وواحد فى الصلاة والصوم .

وعن ثابت البنانى[١] مثل معناه .

عن الحسن ، قال لقمان لابنه : يا بنى خذ من الدنيا أخذا لا يضر بآخرتك ، ولا ترفضها كل الرفض فتكون عيالا على الناس ، ولكن خذ من الدنيا بلاغا .

وعن أبى هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من طلب الدنيا حلالا استعفافا عن المسئلة ، وسعيا على عياله ، وتعطفا على جاره ، جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر ، ومن طلب الدنيا حلالا ، مرائيا ، مكاثرا ، مفاخرا ، لقى الله عز وجل وهو عليه غضبان[٢] .

---

(١) الإمام الحجة القدوة أبو محمد البنانى البصرى .
قال العجلى : ثقة رجل صالح ، وقال النسائى: ثقة ، وقال أبو حاتم: أثبت أصحاب أنس : الزهرى، ثم ثابت، ثم قتادة ، وقال شعبة : كان ثابت يقرأ القرآن فى كل يوم وليلة ، ويصوم الدهر ، وقال ابن حبان في الثقات ، كان من أعبد أهل البصرة .
وروى غالب القطان عن بكر بن عبد الله قال : من أراد أن ينظر إلى أعبد أهل زمانه فلينظر إلى ثابت البنانى ، فما أدركنا الذى هو أعبد منه .

(٢) راجع كنز العمال ص ٦ ج ٤ حيث ذكر رواية أبى نعيم فى الحلية لهذا الحديث عن أبى هريرة .

وعن سفيان قال : مكتوب فى التوراة : إذا كان فى البيت بر فتعبد ، وإن لم يكن فالتمس .

وعن أبى عثمان النهدى[١] قال : دخل رجل على سلمان، رضى الله عنه، وهو يعمل الخوص بيده ، فقال : تعمل الخوص بيدك ، وعطاؤك أربعة آلاف !!! فقال : إنى أحببت أن آكل من كسب يدى .

(ربط الأرزاق بالأسباب مع تقديرها أزلا)

(٢٣٢) قال أبو عبد الله ، رحمه الله :

إن الله قد أثبت الأرزاق[٢] فى اللوح على المقدار الذى يريد ، وعلى كيفية ما يريد ، وفى الوقت الذى يريد .

---

(١) هو عبد الرحمن بن مل — بلام ثقيلة والميم مثلثة — ابن عمرو بن عدى بن وهب بن ربيعة بن سعد بن خزيمة أبو عثمان النهدى ، أدرك الجاهلية ، وأسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلقه :

قال معتمر بن سليمان التيمى عن أبيه : إنى لأحسب أن أبا عثمان كان لا يصيب ذنبا ، كان ليله قائما ونهاره صائماً .

وقال ابن أبى حاتم عن أبيه : كان ثقة .

وقال أبو زرعة والنسائى وابن خراش : ثقة

تهذيب التهذيب ص ٢٧٧ ج ٦ وذكر فى الترجمة رقم ١٠٤٠٤ من ميزان الاعتدال على أنه ثقة إمام .

(٢) فى الأصل : خالف .

والنفس تشتهى شيئا ، ربما يوافق ذلك المثبت فى اللوح ، وربما يخالف[١] ، فلو لم تكن هذه الأسباب لكانت النفس تغلى شهوتها ، لا تقدر أن ترى ذلك التقدير حسنا ، فكان فى ذلك فساد[٢] لقلوبهم ، فجعلت الأسباب لصرف وجوههم عن ذلك المثبت إلى وجوه المطالب والمكاسب ، فيرجعوا باللائمة على أنفسهم فى ذلك .

وذلك سببه بما كان من سبيل ملك الموت ، كان يأتى فيقبض الروح عيانا ، فسبوه ، فشكا إلى الله . فوضعت العلل والأسقام . فالأسباب بمنزلة الأمراض ، والرزق بمنزلة الموت ، وبدء كليهما من عند الله .

وبين الله شأن المال أنه قوة للدين فقال : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما[٣] » .

(لا حجة فى ترك طلب الرزق)

قال له قائل : إن بعض المقبلين على أمر الدين تركوا الطلب ، وقالوا : قد ضمن الله الرزق .

وجاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله[٤] .

---

(١) فى الأصل : الأرواح .
(٢) فى الأصل : فساداً .
(٣) النساء : ٥
(٤) راجع فى هذا الحديث كشف الخفاء رقم ٧٠٥ ص ٢٦٦ ج ١ =

(٢٣٣) وقال تعالى جده : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب [١] » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ها لو لم تأتها لأتتك .

فقعدوا ينظرون الرزق ، ووفاء الضامن لهم بذلك .

(الفرق بين من قعدوا بغير يقين ، وبين من أقعدوا)

فقال : قعدوا ؟ أو أقعدوا ؟

وإن كانوا قعدوا ينبغي لهم أن يقوموا ، أن يطلبوا ، تحرزا من الطمع وفساد القلب ، وتحصنا من فتنة النفس أن تحمله الحاجة على تناول الشبهة ، و (على) التذلل للأغنياء ، فإن لم يفعل أبغضهم ، فإن بغضتك[٢] إياهم فتنة ، ولأمتك لهم أشد فسادا لقلبك من ذلك المال ،

= وقد رواه الطبراني عن الحسن بن علي بصيغة : «أيها الناس إني والله ما آمركم إلا بما أمركم الله به ، ولا أنهاكم إلا عما نهاكم الله عنه ، فأجملوا في الطلب ، فوالذي نفس أبي القاسم بيده إن أحدكم ليطلبه رزقه كما يطلبه أجله ، فإن تعسر عليكم شيء منه فاطلبوه بطاعة الله عز وجل » .

وذكر في الجامع الصغير روايته للطبراني في الكبير وابن عدي في الكامل عن أبي الدرداء بصيغة : «إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله» وحسنه ص ٦٧ ج ١ .

(١) الطلاق : ٢ و ٣ .

(٢) في الأصل : بغضته ، وما أثبته أليق بالسياق .

وإنما تقطع الطمع أولا بالإقبال على الطلب ، فلا تزال تطلب من وجوه المكاسب على ما أمر الله ، وتستعمل فيه الورع والتقوى ، فتصبح وتمسى مجاهداً لنفسك فى طلب الحلال .

فأى عبادة أفضل من ذلك ؟ هل يدانيه صوم أو صلاة ، أو شىء من أعمال البر ؟ و (قد) أسكنت شدة طمعك وقوته ، فبعد هذا تصل إلى أعمال أهل اليقين .

فإذا أيقنت انقطع طمعك أصلا ، وسكن قلبك إلى من بيده ملكوت كل شىء ، الذى قال : « وتوكل على (٢٣٤) الحى الذى لا يموت[١] » فرأيت باطن هذه الكلمة ، فحينئذ حققت الإياس مما فى أيدى الناس .

فأما إذا أردت (فى) ابتداء هذا الأمر أن تدرك قلوب الموقنين ، والشهوات فى قلبك ، فهذا ما لا يكون ، وكيف يكون اليقين فى قلب وفيه ظل الشيطان باقى !! وهو الهوى ! !

(وصف الذين قعدوا)

فإذا تركت طلب المعاش قبل استقرار اليقين ، رمت بك نفسك فى أودية المهالك ولا تشعر ، وتضيع حق الزوجة والولد ، وتزعم أن أرزاقهم على الله ، وأين حكم فى تنزيله « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن »[٢]

---

(١) الفرقان : ٥٨ .

(٢) البقرة : ٢٣٣ .

وقال فى شأن الرضاع « فآتوهن أجورهن »(١) فهذا تارك للسبيل والسنة ، يعيش فى عناء ، ويموت ظالما طامعا قاطعا للحقوق على أهله ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت(٢) » .

وإن كانوا أقعدوا فإنهم يكفون مئونته .

(أثر الكسب الحلال فى تحصيل محامد الخلال)

قال له قائل : ما معنى قولك : قعدوا ، وأقعدا ؟ ؟

(قال) : أما قعدوا ، فهم قوم عند مبتدأ أمرهم ، لما شموا شيئا من رائحة الطاعة كسلوا عن الكسب ، وتوسع عليهم فى المعاش ، وأقبلت الدنيا عليهم ، لما رؤى (٢٣٥) عليهم أثر الطاعة ، فاحترقوا فيها ولم يشعروا ، لأن قلوبهم مائلة لمن أكرمهم بالنوال والعطية ، وحرموا

---

(١) الطلاق : ٦ والآية هى : «أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى» .

(٢) رواه أحمد فى مسنده والبيهقى فى سننه وأبو داود عن ابن عمرو . ذكره فى الجامع الصغير ، وقال : صحيح ص ٧٥ ج ١ وقد رواه الحاكم فى مستدركه ووافقه الذهبى ص ٤١٥ ج ١ .

بركة المجاهدة فى الكسب والبر والتقوى ، وحرموا التخلق بأخلاق الكرام ، من حسن المعاشرة مع الناس فى السخاوة معهم ، والبشر والسهولة فى الأداء والاقتضاء ، والبيع والشراء ، والقيام بالوفاء فى الوعد ، والكيل والوزن ، وحفظ الحدود ، فهذا كله عبادة ورياضة نفس .

وذهبوا ، وتخلوا من هذا الخير كله ، فتكلفوا القعود قبل أوانه ، وآثروا كثرة النوم ، وطلب الراحة ، فالواجب عليهم القيام والسعى .

(الاحتجاج بفساد الزمان وفساد المكاسب)

فإن قيل : فسدت المكاسب ، وفسد الناس ، وذهبت الأمانة .

قيل لهم : فأنتم الهراب من مجاهدة النفس ، فكيف يصلح من هرب من مجاهدة النفس و (مكابدة) الشدة ، ومقاساة الغموم فى دين الله !! ؟

(وصف الذين أقعدوا)

وأما الذين أقعدوا ، فقوم كان سبيلهم منذ تابوا ما وصفنا من الجهد فى حفظ الحدود مع الله فى طلب المكاسب ، وركبوا صعاب الأمور ، ودققوا النظر ، فتورعوا عن كثير من الحلال مخافة الشبهة ، فلم يزل الله لهم (٢٣٦) معينا ومؤيدا فى ذلك ، منجزاً لوعده ، كما قال عز وجل : « وكان حقا علينا نصر المؤمنين[١] » فصبروا على

---

(١) الروم : ٤٧ .

الذل والفقر ومقاساة الجهد والهموم فى شأن الطلب ، وتحصنوا من آفات الطمع . وأدوا حق العيال ، ووصلوا من القليل الأرحام ، وواسوا الإخوان ، وعطفوا على اليتامى والفقراء والمساكين والأرامل[١] .

فهؤلاء قوم على سبيل الصدق والوفاء ، يتقون ما حذرهم ، ويؤدون حقوق أهل التبعة ، ويحفظون الجوارح فى ذلك . فكل هذه فروض يؤدونها ؛ ثم بعد ذلك تنفلوا ، بأن واسوا الإخوان ، وتعطفوا على الأرملة واليتيم ، ووصلوا الأرحام . ومع ذلك أطاعوا الله فى سائر الأمور ، فهداهم ربهم إلى سبيله ، كما وعد فقال : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا »[٢] ، لأنهم أدوا حقوق المجاهدة لما تقدم إليهم فى بدء[٣] الأمر ، فقال : « وجاهدوا فى الله حق جهاده »[٤] فلما قاموا بحق المجاهدة ، وفى لهم بما وعد من قوله : « لنهدينهم سبلنا فهداهم » (٢٣٧) واصطفاهم ، وقبلهم . فشغلهم بنفسه .

فهم المحررون ، عتقاء الرحمن من شهوات النفوس ولذاتها ، لأن القلب إذا شغل بشىء ذهل عما سواه ، فكيف إذا اشتغل برب الأشياء !!

---

(١) فى الأصل : والأرمله .

(٢) العنكبوت : آخر آية .

(٣) فى الأصل : بدو .

(٤) الحج : آخر آية .

ففتح الله على قلوبهم من ملكه ما نسوا فى جنبة كل مذكور ، وذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه فيما يروى عن جبريل عليه السلام عن ربه عز وجل أنه قال : ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء فرائضى ، وإنه ليتقرب إلى بعد ذلك بالنوافل حتى أحبه(١) .. الخبر . فهذا حاله مع ربه عز وجل ، فهو الذى ضمن السموات والأرض رزقه ، فهم الذين أقعدوا .

(مكان المبتدئين من طلب الرزق)

فأما الذين قعدوا تكلفا ، ومراجل الشهوات تغلى ، وتراكم الهوى،

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قال : من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته .

كتاب الرقاق ــ باب التواضع ، وكذلك فى كتاب الأدب .

وذكر فى ميزان الاعتدال أنه مما انفرد به البخارى عن ابن كرامة عن خالد بن مخلد ، ثم قال : ولم يرد هذا المتن إلا بهذا الإسناد ، ولاخرجه من عدا البخارى ، ولا أظنه فى مسند أحمد .

كسحابة[1] مظلمة ، فقد أحرق نفسه وعاش فى عمى ، لا يخرج من ظلمة إلا وقع فى أخرى ، وبان من الصدق بونا بعيدا ، وصار مسبة الصديقين، فكما ذكر صديق بسوء فإنما يذكر هو ، لما رؤى من ظاهر هذا المخادع.

فيقال لهذا : أطلبت المعاش كما أمرت ! ؟ فلم يأمرك أن تبتغيه من الله عز وجل ، إنما قال : ابتغه من فضل الله ، أى اضرب فى (٢٣٨) الأرض هكذا وهكذا على وجوه الطلب ، لأنه مقلب القلوب ، فيهدى ، ويسوق ، ويخلى ، ويضرب ، ويرين على القلوب حتى يوصل ذلك إليك، فذلك فضله عليك .

فقعد هذا بغليان مرجله : وهواه المظلم ، فقال : أنا أبتغى من الله ، حتى يرزقنى كما ضمن ، فما يدريك كيف ضمن ! ؟ وإنما ضمن الأرزاق جملة ، فمنها فى يسر وراحة ، ومنها فى عسر وشدة ، فكيف تخطيت إلى الراحة دون الشدة ! ! فيا ترى متى وجبت لك هذه الحرمة عنده ! ! ! بأى وجه ا وبأى حرمة ! وبأى بذل نفس ويقين وطمأنينة ! حتى تبتغى منه ! ! وإنما أمرت بالضرب فى الأرض والابتغاء من فضله .

(مكان الصديقين من طلب الرزق)

وإنما توجب هذه الحرمة لمن عنده تحرير الزاهدين ، وخشية

(١) فى الأصل : فسحابة

الورعين ، وفرق المتقين ، وقلق الخائفين ، وحرقة المشتاقين ، وأنس المخبتين ، ومراقبة العارفين ، ونهمة الوالهين .

وإنما يسوق الرزق من غير مئونة وطلب ، إلى من نسى الرزق وذهل عنه شغلا بربه ، وإلى من وثق به من غير جهة الضمان ، لأنه لما عرفه برا لطيفا ، وبه رءوفا رحيما ، وعرفه حنانا ومنانا ، (٢٣٩) وعرفه بالمعروف وكرم الصفح ، وكرم المعاملة ، وجود العطايا ، واستقرت هذه المعرفة فى قلبه ، أمله بخير الدنيا والآخرة ، فعظم أمله ، وحسن ظنه به ، واستحى منه أن يضطرب قلبه عليه من سوء الظن به ، فأمن خوف فوت الرزق ، أو إتعابه فيه ، فوفى له بذلك .

(مكان الزاهدين من طلب الرزق)

الزاهدون على ثقة من ربهم فى شأن الرزق ، فسكنت قلوبهم ، وأمنت القوت ، ولكن هناك بقية اضطراب . ذلك لأن نفوسهم تريد شيئا ، وكائن أن يكون فى التقدير خلاف ذلك بما لا يوافق النفس ، فتضطرب من أجل ذلك .

(مثل الزاهدين والصديقين)

والصديقون اطمأنت قلوبهم ، فلم يبق هناك اضطراب ، لحسن ظنهم بربهم .

بمنزلة رجل له عبدان ، فأراد أن يغيب إلى موضع فأخرج رزق أحد العبدين ، فوضعه على يد أمين ثقة ، لينفق عليه ، وأخرج رزق الآخر فوضعه على يد أبويه .

فالأول : أمن قوت الرزق ، لأنه قد وضعه على يدى ثقة، ولا يأمن أحوال إجراء الرزق . لأنه لايدرى كيفيته من التأخير والتعجيل والمقدار ، فهو فى اضطراب .

(٢٤٠) والثانى : وضع رزقه عند أبويه ، فأمن جميع الوجوه ، ولم يبق اضطراب ، لحسن ظنه بأبويه .

(رزق رسول الله صلى الله عليه وسلم)

ونظرنا فى رزق الرسول صلى الله عليه وسلم، فوجدنا له ثلاثة أحوال.

(المنزلة الأولى)

منها فى بدء[1] النبوة ، كان يتجر وهو بمكة ، حتى عيره المشركون : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها[2]» فأجابهم الله تعالى فقال : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين

---

(١) فى الأصل : بدو .

(٢) الفرقان : ٧

إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق [(١)]، إلا هكذا[(٢)] .

ومن الله عليه بمال خديجة ، رضى الله عنها ، ثم عدده عليه فى كتابه فى النعم فقال : « ووجدك عائلا فأغنى[(٣)] » ، فهذا كان رزقه من قبل مبعثه إلى أن مضت سنة وزيادة من الهجرة ، حتى وجدنا فيما حدثنا به الجارود[(٤)] ، عن وكيع[(٥)] ، عن شريك[(٦)] ، عن سماك[(٧)] ، عن

---

(١) الفرقان : ٢٠ راجع الحاشية رقم ٢٩ .

(٢) أى ما أرسلنا رسولا إلا هكذا : يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .

(٣) الضحى : ٨

(٤) هو الجارود بن معاذ السلمى « أبوداود » ، ويقال أبو معاذ الترمذى ، ذكر ابن حجر فيمن روى عنه الترمذى والنسائى ، ومحمد بن على « الحكيم الترمذى » صاحب هذه الرسالة .

قال النسائى : ثقة ، وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : مستقيم الحديث . قال أبو القاسم بن عساكر : مات (٢٤٤) .

(٥) راجع الحاشية رقم ١٧

(٦) هو شريك بن عبد الله بن أبى شريك النخعى ، أبو عبد الله الكوفى القاضى الحافظ الصادق أحد الأئمة .

قال ابن معين : صدوق ثقة إلا أنه خالف فغيره أحب إلينا منه .

أنظر ميزان الاعتدال رقم ٣٦٩٧ ص ٢٧٠ ج ٢ ، وتهذيب التهذيب ص ٣٣٣ ج ٤ .

(٧) هو سماك بن حرب ، أبو المغيرة الهذلى الكوفى . =

عكرمة[1] ، عن ابن عباس . قال : قدمت عير المدينة فاشترى رسول

= صدوق صالح ، من أوعية العلم ، مشهور

قال العجلى : جائز الحديث ، كان الثورى يضعفه قليلا ، وقال ابن المدينى : روايته عن عكرمة مضطربة ، فسفيان وشعبة يجعلونها عن عكرمة ، وأبوالأحوص وإسرائيل يجعلونها عن ابن عباس .

وقال يعقوب بن شيبة : هو فى غير عكرمة صالح ، وليس من المتثبتين .

ميزان الاعتدال رقم ٣٥٤٨ ص ٢٣٢ ج ٢ وتهذيب التهذيب ص ٢٣٢ ج ٤

(١) عكرمة مولى ابن عباس أبو عبد الله المدنى وأصله من البربر أحد أوعية العلم ، تـكلم فيه لرأيه لا لعلمه ، فإنهم برأى الخوارج .

وثقه جماعة ، واعتمده البخارى ، وتجنبه مسلم ، وروى له قليلا مقرونا بغيره ، وأعرض عنه مالك ، إلا فى حديث أو حديثين .

قال ابن المدينى : كان يرى رأى نجدة الحرورى

وقال مصعب الزبيرى : كان عكرمة يرى رأى الخوارج ، قال : وادعى على ابن عباس أنه كان يرى رأى الخوارج .

وعن عطاء بن رباح : أن عكرمة كان إباضيا .

وقال أبوطالب : سمعت أحمد بن حنبل يقول : كان عكرمة من أعلم الناس ، ولـكنه كان يرى رأى الصفرية .

وعن أبى بكر بن أبى سبرة قال : باع على بن عبد الله بن عباس عكرمة لخالد بن يزيد بن معاوية بأربعة آلاف دينار ، فقال له عكرمة : ما خير لك ؟ بعت علم أبيك ! فاستقاله فأقاله ، وأعتقه

ميزان الاعتدال رقم ٥٧١٦ ص ٩٣ ج ٣ وتهذيب التهذيب ص ٢٦٣ ج ٧

الله صلى الله عليه وسلم منه . فربح أواق فقسمها بين أرامل بنى (٢٤١) عبد المطلب ، وقال : لا أشترى بعد هذا شيئا ليس عندى ثمنه[1] .

(المنزلة الثانية)

ومنزلة أخرى بعد الهجرة ، أذن له فى القتال ، ونشبت الحرب بينه وبين الكفار ، وأحل الله له ولأمته الغنيمة . وأنزل عليه فى التنزيل : « فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا[2] » فهذا الحلال الذى عليه خاتم رب للعالمين ، فقوله « طيبا » فلم يكن عندهم شيء أحل ولا أطيب منه . فقال صلى الله عليه وسلم : « جعل رزقى تحت ظل رمحى وسيفى »[3] فهذه منزلة ثانية .

(المنزلة الثالثة)

والمنزلة الثالثة أنه لما هذ به ، وطهره ، وقوم أخلاقه ، وبلغ به من الدين الدرجة التى ساد (بها) ولد آدم كلهم . حتى جاز أن يقول :

---

(١) ذكر فى الجامع الصغير رواية أحمد بن حنبل فى مسنده والحاكم فى مستدركه عن ابن عباس، وقال عنه : إنه صحيح ص ١٨٧ ج ٢ راجع أيضا كنز العمال ص ٤٢ ج ٤

(٢) الأنفال : ٦٩

(٣) ذكر البخارى هذا الحديث فى باب ماقيل فى الرماح فقال : ويذكر عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم : جعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ص ٤٩ ج ٤

« أنا سيد ولد آدم ولا فخر[1] » ، وإنما سادهم ـ فيما بلغنا ـ أنه بلغنا أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام وفيه مائة خلق ، فهو كمال المروءة ، ثم بعث الرسل والأنبياء ، وفى كل منهم بعض تلك الأخلاق ، وسقط عنهم بعض ذلك .[2] فروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

---

(١) أخرج ابن ماجه فى سننه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ، ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ، ولا فخر ، ولواء الحمد بيدى يوم القيامة ولا فخر

كتاب الزهد باب ذكر الشفاعة رقم ٤٣٠٨ ص ١٤٤٠ ، وكذلك رواه أحمد والترمذى

ورواه مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع

كتاب الفضائل رقم ٢٢٧٨ ص ١٧٨٢

وكذلك رواه أبو داود ، كما روى عند غيرهم بصيغ أخرى ، انظر كشف الخفاء رقم ٦١٦ ص ٢٣٤ .

(٢) ذكر فى الجامع الصغير أن البخارى رواه فى الأدب ، والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن أبى هريرة ، وقال حديث صحيح ص ٨٦ ج ١

وقد روى مالك فى الموطأ بلاغا فى حسن الخلق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بعثت لأتمم حسن الأخلاق كما رواه أحمد عن أبى هريرة بسند حسن . انظر تفسير ابن كثير فى تفسير قوله تعالى « وإنك لعلى خلق عظيم » .

« إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق[١] » روى ذلك عن أبى هريرة، فإذا قال (٢٤٢) : بعثت بهذا فاعلم أنه وجب عليه إتمامه ، فلا يتوهم عليه أنه خرج من الدنيا ولم يتممه ، فإذا تممه فإنما أخذ بأخلاق الأنبياء ، وما سقط عنهم أيضا ، فحينئذ استوجب من الله تعالى الثناء ، فأثنى الله تعالى عليه ، فقال بعدما أقسم : « (و) إنك لعلى خلق عظيم »[٢] فقالوا : خلق القرآن ، وخلق القرآن يجمع التوراة والإنجيل ، ويفصل المفصل أيضا ، وأقسم بحياته فقال : « لعمرك[٣] » لأن من تخلق بالقرآن عظم خطبه ، فبذلك استحق الدرجة الوسيلة التى هى جنة عدن ، التى لا يفوقه أحد إلا حملة العرش ، ويكون أقرب الناس إلى ربه يوم الموقف ، وفى الجنة ، وبعثه المقام المحمود ، وغفر له ماتقدم وماتأخر ، لأنه انقاد له انقيادا لم يدركه أحد .

وسئلت عائشة ، رضى الله عنها ، عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خلقه (القرآن) يرضى برضاه ، ويسخط بسخطه[٤] .

---

(١) ينبغى أن يفهم هذا اللفظ على غير ظاهره المتبادر فنحن نجل أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام عن مثل هذا الظاهر، وإنما يكون المقصود أنهم لم يبلغوا من تمام هذه الأخلاق ما بلغه خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم

(٢) ن : ٥

(٣) الحجر : ٧٢

(٤) لهذا الحديث عدة روايات ، راجع فيها تفسير ابن كثير عند قوله =

فلما قام فى هذه المرتبة جعل له طعمة منه ، (حيث) قذف الرعب ـ وهو أعظم جنود الله فيما يقال ـ فى قلوب أهل فدك ، وقريظة ، والنضير . (٢٤٣) حتى خربوا بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، ثم سلط رسوله على ذلك من غير تعب ولا حرب ولا مئونة ، فكان منها رزقه إلى أن قبض صلوات الله عليه .

فهذا أهنأ من الغنيمة التى وقعت فيها المقاسم ، وشاركت الأيدى فيها . والغنيمة كانت أهنأ من التجارة التى كانت فى مبتدأ نبوته .

وكلما ازداد صفاء وانقيادا زاده الله هناء وطيبا ويسرا فى شأن دنياه ، وقربة ورفعة ودرجة فى الآخرة .

فعل الله هذا به ، وليرى المؤمنون ذلك ، فيكون هذا الفعل مثالا لهم ، وأن تبلغ مراتبهم هناك .

= تعالى «وإنك لعلى خلق عظيم» وقد قال : وقد رواه الإمام مسلم فى صحيحه من حديث قتادة بطوله ، وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل حدثنا يونس عن الحسن قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله علية وسلم فقالت : كان خلقه القرآن . وقد روى أبو داود والنسائى من حديث الحسن نحوه ، ثم قال : ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمراً ونهيا سجية له وخلقا تطبعه ، وترك طبعه الجبلى ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل اهـ

(ليس اليسر والعسر بالكثرة والقلة)

قال قائل : فالرسول صلى الله عليه وسلم كان ربما جاع حتى يربط الحجر والحجرين على بطنه ، وكذلك أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

فقال : إن اليسر ليس فى الكثرة والقلة ، كذلك شأن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان لايصيب إلا ما قدر له ، كذلك كان (ما) قسم له من الرزق ، وكل إنما يصيب من رزقه ماقدر له ، فهو رزقه ، ومالم يقدر له فليس هو برزق له

والرزق : هو رمى الشىء إليك من طريق القضاء .

تقول العرب : زرق ، ورزق ، فقوله (٢٤٤) : زرق بالمرزاق أى : رماه به حتى حل به .

وبتقديم الراء : رماه من طريق القضاء والقدر .

ولكن المطيع تيسر عليه ، لأن قلبه موقن مطمئن ، فهو فى راحة ، وذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله أوثق منه بما فى يديه(١) .

---

(١) جاء فى سنن الترمذى عن أبى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة فى الدنيا أن لا تكون بمافى يديك أوثق مما فى يدى الله ، وأن تكون فى ثواب =

والذى هو فى تعب ونصب ، وإنما دخل التعب والنصب عليه من قبل فساد القلب ، لأنه لما ضعف اليقين اضطرب القلب ، فأحزنه بطؤه عنه ، وانكسر لقلته ، وأنه لم يجىء على شهوته ، فقلبه أبدا مغموم مهموم حزين ، آسف من خوف فوت شىء لايدرى قدر له أم لا .

(لماذا أقسم الله على ضمان الرزق)

قال له قائل : فإذا ضمن الله الرزق ، بعد أن قدر ذلك فى الذكر الحكيم ، لم أقسم على ذلك !! .

قال : لمعنيين :

أحدهما : أن يكون تطييبا لنفسه ، وسكونا لها ، لئلا تفتتن ، لأن النفس فى ظلمة ومن ظلمة . فإذا رأى ذلك سكن - وليست على يقين — كالمنخدع .

= المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك . وقال هـــذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

باب ما فى الزهادة ص ٣ ج ٤

وقد رواه ابن ماجه بنحو ذلك

وقال : قال هشام : قال أبو إدريس الخولانى ، يقول : مثل هذا الحديث فى الأحاديث كمثل الإبريز فى الذهب .

وذلك قول سلمان ، رضى الله عنه ، حيث رؤى يحمل طعاما على ظهره ، فقيل له أتحرز هذا كله يا أبا عبد الله إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت[١] .

فإنما ذكر (٢٤٥) النفس ، ولم يذكر القلب ، لأن القلب والعقل يشهد بأن الرزق عند الله ، فأحرز سلمان ، رضى الله عنه ، لها ، كيلا تضطرب ، فينجو من وسوستها ، وكأنه خدعها وغرها ، فألق سببا مجموعا إليها ، كى تسكن ، ويريها أن هذا رزقها ، فإن رجع سلمان ،رضى الله عنه ، إلى العقل والقلب ، أليس كان موقنا أنه لايعلم أن هذا رزقه : ومن أين يدرى من أين رزقه : ومتى يصل إليه : ولو وضع[٢] جبلا من ذهب !!!

فذلك فعل سلمان ، رضى الله عنه ، ومن قبله ، وبعده ، أن (فى) هذا تسكينا للنفوس ، وقطعا لوسوستها .

والذى يعلم أن الله تعالى إنما أكد الرزق فى أى من كتابه لقطع

---

(١) ونفهم سر هذا التفريق بين النفس والقلب ، لأن النفس عند الحكيم الترمذى هى مصدر الرغبات والشهوات دون مبالاة أو مراعاة لحد من حدود الله ، أما القلب ، فإنه مهبط أنوار الله ، والمعركة بينه وبين النفس قائمة حتى يتغلب أحد الطرفين ويصبح هو أمير المملكة فى الإنسان

(٢) أى ولو جمع وحاز جبلا من ذهب

الوسواس وليتفرغ القلب لحفظ حدوده، وأداء فرائضه، فيحسن عبادته، ويتدبر آياته .

وكذلك أمرهم بالتوكل والتفويض ، فيستريح القلب من الأشغال ، فإن القلب إذا خلص من أشغال النفس بالتفويض والتوكل ، وسكن الاضطراب ، حينئذ يصل إلى صفوة العبودية ، ويطلع على باطن تنزيله، ويجد حلاوة الطاعات ، ويقف على الرضا ، ويقبل منه النعم والأيادي والمنن ، وكل قلب مشغول بشهوات (٢٤٦) النفس ومناها ، وخوف فوت الرزق الذي قدره هو لنفسه وتمناه ، وقد أثبت في اللوح المحفوظ خلافه ، فهو ساقط ، حرام عليه أن يصل إلى ما وصفنا .

وأما المعنى الآخر : فإنه إذا طلب هذا الشيء فاجتمع له أمسكه ، فما كان منه رزقه ، فإنه ييسر عليه الإنفاق (١) .

تم الكتاب بعون الله تعالى

ومنه

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله

وصحبه وسلامه

---

(١) أي أن شعور الإنسان بضمان الرزق من الله يجعل من اليسير عليه أن ينفق مما آتاه الله في سبيله ، لأنه واثق أن ذلك لاينقص شيئا من رزقه الذي قدره الله له ، فيتيسر عليه الإنفاق ثقة واعتماداً على ضمان الله عز وجل .

وبالله التوفيق .